الكتاب

في كتاب الله تعالى

تفسير موضوعي مقارن

محمد خير رمضان يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله مُنزِلِ الكتاب، والصلاةُ والسلامُ على من أُنزلَ عليه الكتاب، وعلى آلهِ وأصحابهِ ومن تعلَّمَ وعلَّمَ الكتاب. وبعد:

فقد ورد لفظ "**الكتاب**" معرَّفًا بـ"الـ" في القرآن الكريم (٢٣٠) مرة، بما فيها (أهلُ الكتاب).

وبالتنكير "**كتابًا**" (١٢) مرة.

ومقترنًا بضمائر "**كتابنا، كتابه، كتابي...**" (١٣) مرة.

وبالجمع "**كُتُب، كُتبه**" (٦) مرات.

ومع هذا العددِ الكبيرِ من تكرارِ لفظِ "الكتاب"، إلا أنه لم يُفرَدْ فيه مؤلَّفٌ مستقل!

وكنتُ قد كتبتُ مقالاً بعنوان "الكتاب في القرآن الكريم" في "مجلة الكتاب الإسلامي"، فأحببتُ أن أتوسَّعَ فيه ليصبحَ كتابًا، فلا شكَّ أن كثرةَ ورودِ لفظٍ تدلُّ على أهميةِ موضوعه.

ومما يلفتُ النظر، أن أهلَ الثقافةِ والعلمِ يستشهدون بورودِ لفظِ (القلم) و (اقرأ) في القرآنِ للدلالةِ على اهتمامِ الإسلامِ بالعلمِ والحضارة، ولم أرَهم يذكرون (الكتاب) لأجلِ ذلك، أو هو نادر، مع أن القلمَ وردَ ذكرهُ مرتينِ فقط في القرآن، وورد ذكرُ الكتابِ فيه (٢٦١) مرة. والكتابُ لا يقلُّ دلالةً على العلمِ والعلماءِ والحضارةِ والمدنيةِ من القلم!

ولم أتوسَّعْ زيادةً عمّا وردَ في معنى "الكتاب"، فليس هذا البحثُ خاصًّا بفعل (كتبَ) وتصريفاته، ولكنه للمصدرِ (كتاب) وحده، إفرادًا أو جمعًا.

وجعلتُ بحثَهُ موضوعيًّا، ووزعتُ على كلِّ موضوعٍ الآياتِ الكريمةَ الملائمةَ له.

وأُشيرُ إلى الخلافِ في معنى (الكتابِ) غالبًا إذا وُجد، ولم أذكرهُ إذا كان يسيرًا، وأرجّحُ ما اختارَهُ بعضُ المفسِّرين، وأجعلهُ في موضوعه، ولا أكرّر.

مع تفسيرِ الآياتِ التي وردَ فيها لفظُ (الكتاب)، حتى يتَّضحَ مفهومهُ بشكلٍ أفضل.

وقد تبيَّنَ المرادُ من (الكتابِ) في (١٥) معنى، ليس من بينها الكتابُ الذي نعرفهُ إلا في آياتٍ قليلة، مع اختلافِ المفسِّرين في مدلولهِ في آياتٍ كثيرة، لعلهُ أغلبها، مما يعني ضرورةَ التفسيرِ لمزيدٍ من التدبُّر.

وتعدَّدتْ مصادرُ التفسيرِ التي اعتمدتُ عليها، والأولويَّةُ للأمَّهاتِ منها.

واستغنيتُ عن الهوامشِ بذكر المصادرِ في المتن، ويكون التفسيرُ من موضعِ الآيةِ المذكورةِ عند الاستشهادِ بها.

فإذا لم أذكرِ المصدرَ فيكونُ لوضوحِ مدلولِ الآية، أو يكون نقلاً من التفسيرِ الذي وفقني الله لإعداده، وهو "الواضح في التفسير". ومن النادرِ أن لا أذكرَ ذلك.

وقد لخَّصتُ القولَ في الخاتمة، لمن أرادَ الاختصار.

ومن الله تعالى أستمدُّ العونَ والتوفيق.

محمد خير يوسف

١٤٣٨ هـ

الكتاب

بمعنى اللوح المحفوظ

يأتي الكتابُ في القرآنِ الكريمِ بمعنى "**اللوح المحفوظ**":

- مثالهُ قولهُ سبحانه: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [سورة الأنعام: ٣٨].

فالكتابُ هنا بمعنى اللوحِ المحفوظ، كما روي عن ابن عباس وقتادة (ينظر تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي).

وتفسيرُ موضعِ الشاهدِ منه: ما أغفَلنا ولا تركنا شيئاً مهملاً، بل كلُّ شيءٍ مسجَّلٌ ومحفوظٌ في كتابٍ عندَ الله، هو اللَّوحُ المحفوظ. (الواضح في التفسير).

- ويقالُ للوحِ المحفوظ "الكتاب"، و"أمُّ الكتاب"، أي: أصلُ الكتاب، كما في قولِ ربِّنا سبحانه: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [سورة الرعد: ٣٩].

قال ابنُ الجوزي في تفسيرِهِ (زاد المسير): قال المفسِّرون: وهو اللوحُ المحفوظ، الذي أُثبِتَ فيه ما يكونُ ويحدث.

- والآيةُ (٥٩) من سورةِ الأنعام: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

قال أبو جعفر الطبريُّ رحمَهُ الله في تفسيرها: ولا تسقطُ ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصارِ والقرى، إلا اللهُ يعلمها، ولا حبَّةٌ في ظلماتِ الأرض، ولا رطبٌ ولا يابس، {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، يقول: ولا شيءٌ أيضًا مما هو موجود، أو ممّا سيوجدُ ولم يوجدْ بعد، إلا وهو

مثبتٌ في اللوحِ المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسومٌ عددهُ ومبلغه، والوقتُ الذي يوجدُ فيه، والحالُ التي يَفنَى فيها. اهـ.

- وبمعناهُ كذلك، كما أفادَهُ المفسِّرون، ما وردَ في الآيةِ (٦١) من سورة يونس: {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِين}.

وبلفظٍ قريبٍ منه في الآية (٣) من سورةِ سبأ، وهو قولهُ تعالى: {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

أي: وما يَغيبُ عن ربِّكَ وزنُ ذرَّة، عاليًا كانَ في السَّماء، أو أسفلَ في الأرض، وأصغرَ من ذلكَ أو أكبر، وكلُّ ذلك مُثبَتٌ في اللَّوحِ المحفوظ. (الواضح في التفسير).

- وكذا هو بمعناهُ في قولهِ تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ} [الأعراف: ٣٧]، كما ذهبَ إليه الطبريُّ وغيره، قال: "يصلُ إليهم حظُّهم مما كتبَ الله لهم في اللوحِ المحفوظ".

أي: فليسَ هناكَ أظلمُ ممَّن تعمَّدَ الكذبَ على اللهِ ونسبَ إليهِ ما لم يقُله، أو كذَّبَ بما قالَهُ اللهُ في كتُبهِ المنزَلة، أولئكَ الذينَ يُصيبُهم حظُّهم ممّا كُتِبَ لهم في اللَّوحِ المحفوظِ منَ الأرزاقِ والآجال، مع ظلمِهم وافترائهم على الله.. (الواضح في التفسير).

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أن معنَى الكتابِ هنا: "مما كُتبَ لهم من الأرزاقِ والآجال"، كما قالهُ البيضاوي. ويعني ما كُتِبَ أو ما فُرضَ لهم. فالكتابُ هنا بمعنَى المكتوبِ أو المفروضِ عنده، وهو ما صرَّحَ به الآلوسي في تفسيره. وهناك فقرة في هذا الكتاب تدلُّ على هذا المعنى للكتاب، وهو يصيرُ إلى معنَى "اللوح المحفوظ"، فما كُتبَ لهم من الأجلِ والرزقِ فيه.

- وقولهُ عزَّ وجلَّ: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة الأنفال: ٧٥].

قال الطبري: {فِي كِتَابِ اللَّهِ} يقول: في حكمِ الله الذي كتبَهُ في اللوحِ المحفوظِ والسابقِ من القضاء.
وقال في (روحِ المعاني): أي: في حكمه، أو في اللوحِ المحفوظ.

- وبمعناهُ أيضًا في قولهِ تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [سورة التوبة: ٣٦].

قال ابنُ جريرٍ الطبري: إن عدَّةَ شهورِ السنةِ اثنا عشرَ شهرًا في كتابِ الله، الذي كتبَ فيه كلَّ ما هو كائنٌ في قضائهِ الذي قضَى.
وكذا أفادَ القرطبيُّ أنه اللوحُ المحفوظ، وغيره.

- وأيضًا في قولهِ تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة هود: ٦].

قال الإمامُ البغوي: أي: كلٌّ مثبتٌ في اللوحِ المحفوظِ قبلَ أنْ خلَقها.

- وقولهُ تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [سورة الإسراء: ٥٨].

قال البيضاوي والنسفي والخازن وغيرهم من المفسرين: أي: في اللوحِ المحفوظِ مكتوبًا مثبتًا.
وتفسيرُ الآيةِ الكريمة: وليسَ هناكَ قريةٌ أو مدينةٌ مِن مدنِ الكفَّارِ إلاّ ونحن مُهلِكوها ومُبيدو أهلِها قبلَ أنْ تقومَ القيامة، أو مُعَذِّبوهُم عذابًا أليمًا، وهذا حُكمٌ كتبَهُ اللهُ في اللَّوحِ المحفوظ، لا يتغيَّر. (الواضح في التفسير).

- وقولهُ تعالى: {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [سورة طه: ٥٢].

قال الإمامُ الطبريُّ ما ملخَّصه: أجابَ موسى فرعونَ فقال: علمُ هذه الأممِ التي مضتْ من قبلنا فيما فعلتْ من ذلك، عندَ ربي، في أمِّ الكتاب، لا علمَ لي بأمرها، لا يخطىءُ ربي في

تدبيرِهِ وأفعاله، فإن كان عذَّبَ تلك القرونَ في عاجل، وعجَّلَ هلاكها، فالصوابُ ما فعل، وإن كان أخَّرَ عقابها إلى القيامة، فالحقُّ ما فعل، هو أعلمُ بما يفعل، لا يخطىءُ في فعله، {ولاَ يَنْسَى} فيتركُ فِعْلَ ما فِعْلهُ حكمةٌ وصواب.

- ويقولُ سبحانهُ وتعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحج: ٧٠].

يخبرُ تعالى عن كمالِ علمهِ بخلقه، وأنه محيطٌ بما في السماواتِ وما في الأرض، فلا يعزبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماء، ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علمَ الكائناتِ كلَّها قبلَ وجودها، وكتبَ ذلك في كتابهِ اللوحِ المحفوظ. (تفسير ابن كثير).

- وقولهُ عزَّ وجلَّ: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [سورة الأحزاب: ٦].

الأقربُ أن معنَى (الكتاب) في الموضعِ الثاني من الآيةِ هو اللوحُ المحفوظ، وقد تمَّ توضيحهُ في فصل (الكتاب بمعنى القرآن).

- ويقولُ ربُّنا سبحانهُ وتعالى: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة فاطر: ١١].

قال القاضي البيضاوي: {إِلاَّ فِى كِتَـٰبٍ}: هو علمُ الله تعالى، أو اللوحُ المحفوظ، أو الصحيفة. اهـ.

ويضافُ إليها: الأجل. وتنظر في (الدر المنثور) للسيوطي أيضًا.

- وقولهُ تعالى: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [سورة الزخرف: ٤].

{وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ} يعني القرآنَ في اللوحِ المحفوظ، {لَدَيْنَا}: عندنا، {لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} أي: رفيعٌ محكَم، لا يوجدُ فيه اختلافٌ ولا تناقض. (تفسير القرطبي).

- قولهُ سبحانه: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} [سورة ق:٤].

قال الإمامُ البغوي في تفسيره: {وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ}: محفوظٌ من الشياطين، ومن أن يُدَسَّ ويتغيَّر، وهو اللوحُ المحفوظ. وقيل: {حَفِيظٌ} أي: حافظٌ لعدَّتهم وأسمائهم.

وقال ابنُ الجوزي في (زاد المسير): أي: حافظٌ لعددهم وأسمائهم، ولِما تَنقُص الأرضُ منهم، وهو اللوحُ المحفوظ، قد أُثبِتَ فيه ما يكون.

وقال أبو حيَّان في (البحر المحيط): أي: حافظٌ لما فيه جامع، لا يفوتُ منه شيء، أو محفوظٌ من البلَى والتغيُّر. وقيل: هو عبارةٌ عن العلمِ الإحصاء.

- وقولهُ تعالى في الآيةِ (٧٨) من سورةِ الواقعة: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} أي: في كتابٍ مَصُونٍ مُعظَّمٍ عندَ الله، محفوظٍ مِن الشَّياطينِ ومِن التَّبديلِ والتَّغيير، وهو اللَّوحُ المحفوظ. (الواضح).

وذكرَ بعضُ المفسِّرينَ أقوالاً أخرى غيرَ اللوحِ المحفوظ، قال القرطبيُّ في تفسيره: والكتابُ هنا كتابٌ في السماء، قالَهُ ابنُ عباس. وقال جابر بنُ زيد وابنُ عباس أيضًا: هو اللوحُ المحفوظ. عِكرمة: التوراةُ والإنجيلُ فيهما ذكرُ القرآنِ ومَن ينزلُ عليه. السدِّي: الزبور. مجاهدٌ وقتادة: هو المصحفُ الذي في أيدينا.

واختارَ القولَ بأنه اللوحُ المحفوظُ البغوي والبيضاوي وآخرون..

- وقولهُ سبحانهُ وتعالَى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} [سورة الحديد: ٢٢].

يقولُ تعالَى ذكره: ما أصابَكم أيها الناسُ من مصيبةٍ في الأرضِ بجدوبها وقحوطها، وذهابِ زرعها وفسادها، {وَلا فِي أنْفُسِكُمْ} بالأوصابِ والأوجاعِ والأسقام، {إلاَّ فِي كِتابٍ} يعني إلا في أمِّ الكتاب، {مِنْ قَبْل أنْ نَبْرأها} يقول: من قبلِ أن نبرأَ الأنفس، يعني من قبلَ أن نخلقها. (الطبري).

الكتاب

بمعنى الوحي

ويأتي "الكتابُ" في كتابِ الله تعالى بمعنى "**الوحي**" عمومًا، فإن الكتبَ السماويةَ وحي.

- كما في قولهِ تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [سورة الحج: ٨].

وهو باللفظِ نفسهِ في الآيةِ (٢٠) من سورةِ لقمان.

{وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} أي: من غيرِ وحي مُظهرٍ للحقّ، كما في (روح المعاني)، وفي الموضعِ الثاني منه: {وَلَا كِتَابٍ} أنزلَهُ الله تعالى، {مُّنِيرٍ} أي: ذي نور.

وعند ابنِ كثير: بلا نقلٍ صحيحٍ صريح، وفي الموضعِ الثاني منه: ولا كتابٍ مأثورٍ صحيح.

وقال الفخرُ الرازي في آيةِ الحج: وبغيرِ كتابٍ من الله أتاهُ لصحةِ ما يقول. وفي آيةِ لقمان: ولا بتنزيلٍ من الله جاءَ بما يدَّعي، يبيّنُ حقيةَ دعواه.

وهكذا يمكنُ أن يقال: إن معنى (الكتاب) في الآيتينِ هو الوحي، أو الكتابُ السماوي. ولا فرق.

وهناك أمثلةٌ أخرى وضعتْ في موضوعِ (الكتابِ السماوي).

الكتاب

بمعنى الكتاب السماوي

كما يردُ لفظُ (الكتاب) في القرآنِ العظيمِ ويُقصَدُ به "**الكتاب السماوي**" (المنزَل).
ونوردُ هنا معنى (الكتابِ) إذا قُصِدَ به الكتابُ السماويُّ مطلقًا من دون تعيين، أو اثنانِ من الكتبِ السماويةِ أو أكثر، فإذا عُيِّنَ ففي بابه.

- من ذلك قولهُ تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [سورة البقرة: ٢٨٥].

تفسيرها: إنَّ الرسولَ محمَّداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنينَ كلَّهم آمنوا إيماناً شاملاً كاملاً، فآمَنوا باللهِ الواحدِ الأحَد، وآمَنوا بملائكتهِ الذين ذَكرهم ورسولُه، وآمَنوا بما أُنزِلَ مِن كُتب، وآمَنوا بالرسُلِ جميعاً، وليسَ ببعضِهم كما فعلَ اليهودُ وغيرُهم. (الواضح في التفسير).

والآياتُ في مثلِ هذا كثيرة، ويأتي بيانها.

- و"أهلُ الكتاب" يعني الذين نزلتْ عليهم الكتبُ السماوية، من اليهودِ والنصارَى خاصة، كما في قولهِ تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [سورة البقرة: ١٠٩] إي: إنَّ كثيراً من اليهودِ والنصارَى يتمنَّونَ لو قدَروا على أنْ يُعيدوكم إلى الكفرِ كما كنتم، وأنْ يَسلبوا منكم هذا الخيرَ الذي هُدِيتُم إليه؛ حسداً وحقداً من نفوسِهم.

قال ابنُ كثير: يحذِّرُ تعالى عبادَهُ المؤمنين عن سلوكِ طرائقِ الكفارِ من أهلِ الكتاب، ويُعلِمُهم بعداوتهم لهم في الباطنِ والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسدِ للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضلِ نبيِّهم.

- وقولهِ عزَّ وجلَّ: [مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [سورة البقرة: ١٠٥].

قال الإمامُ الطبريُّ رحمَهُ الله: فتمنَّى المشركون وكفرةُ أهلِ الكتابِ أن لا يُنزِلَ الله عليهم الفرقانَ وما أوحاهُ إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم من حِكَمهِ وآياته، وإنما أحبَّتِ اليهودُ وأتباعهم من المشركين ذلك حسدًا وبغيًا منهم على المؤمنين.

- وقولهُ سبحانه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} [سورة البقرة: ١١٣].

الكتابُ هنا بمعنى التوراة، والإنجيل، كلٌّ على حدة.

قال الطبريُّ رحمَهُ الله تعالى: أي: كلٌّ يتلو في كتابهِ تصديقَ ما كفرَ به! أي: يكفرُ اليهودُ بعيسى وعندهم التوراةُ فيها ما أخذَ الله عليهم من الميثاقِ على لسانِ موسى بالتصديقِ بعيسى عليه السلام، وفي الإنجيلِ مما جاءَ به عيسى تصديقُ موسى، وما جاءَ به من التوراةِ من عند الله، وكلٌّ يكفرُ بما في يدِ صاحبه.

- واختلفَ المفسِّرون في المقصودِ بالكتابِ في قولهِ سبحانهُ وتعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة البقرة: ١٢١].

فإذا كان الضميرُ في {آتَيْنَاهُمُ} و{يَتْلُونَهُ} عائدًا إلى المسلمين فيكونُ المقصودُ القرآن، وإذا عادَ على المؤمنين من أهلِ الكتابِ فيُقصَدُ به كتبهم، حتى قال بعضهم إن المقصودَ (جنسُ الكتاب)، يعني السماويَّ منه.

ورجَّح الطبري أن يكونَ المعنيَّ بهم اليهودُ والنصارى؛ "لأن الآياتِ قبلها مضتْ بأخبارِ أهلِ الكتابين، وتبديلِ من بدَّلَ منهم كتابَ الله، وتأوُّلهم إيَّاهُ على غيرِ تأويله، وادِّعائهم على الله الأباطيل. ولم يجرِ لأصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم في الآيةِ التي قبلها ذكر".

قال: فإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولَى بمعنى الآيةِ أن يكونَ موجَّهًا إلى أنه خبرٌ عمن قصَّ الله جلَّ ثناؤهُ قصصهم في الآيةِ قبلها والآيةِ بعدها، وهم أهلُ الكتابين: التوراةِ والإنجيل. وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويلُ الآية: الذين آتيناهم الكتابَ الذي قد عرفتَهُ يا محمد – وهو التوراة – فقرأوهُ واتَّبعوا ما فيه، فصدَّقوكَ وآمنوا بكَ وبما جئتَ به من عندي، أولئكَ يتلونَهُ حقَّ تلاوته. اهـ.

- وقولهُ سبحان: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [سورة البقرة: ١٤٤].

أي: إنَّ اليهودَ والنصارَى يَعلمونَ أنَّ توجُّهَكم إلى البيتِ هو الحقّ، بما في كتبِهم مِن صفةِ النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأمَّته، ولعلمِهم أنَّ الكعبةَ هي بيتُ اللهِ الأوَّل، الذي بنَى قواعدَهُ واتَّجهَ إليه إبراهيمُ عليه السلام، ولكنَّهم لا يَقتَنِعونَ بالأدلَّة، ويَكتمونَ ما في كتبِهم مِن علمٍ ولا يُظهرونَه، واللهُ ليسَ بغافلٍ عمّا يعملون. (الواضح في التفسير).

- والآيةُ التالية: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٤٥].

المقصودُ بالذين أوتوا الكتابَ اليهودُ والنصارى، وهم الذين أوتوا التوراةَ والإنجيل.

- وكذا الآيةُ التاليةُ لها: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}

أوردَ السيوطيُّ في "الدرِّ المنثور" لقتادةَ قوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} قال: اليهودُ والنصارى، {يَعْرِفُونَهُ} أي: يعرفون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في كتابهم {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}.

وهكذا، فإن المقصودَ بـ "أهل الكتاب"، أو "الذين أوتوا الكتاب" غالبًا اليهودُ والنصارى، وأوردنا بعضَ الشواهدِ من القرآنِ في ذلك لاقترانِ لفظِ "الكتاب" السماويِّ المنزَلِ بهم، فالمقصودُ "الكتاب" وليس أهله.

- قولهُ سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [سورة البقرة: ١٥٩].

يعني بالكتاب: التوراةَ والإنجيل، كما ذكرَهُ الطبريُّ وغيره.

وتفسيرُ الآيةِ بشيءٍ من الاختصار: إنَّ أهلَ الكتاب، وخاصَّةً اليهود، يُخفونَ ما أنزلنا على الرسلِ منَ الدلالاتِ البيّنةِ على حقائقَ مهمَّة، وما جاؤوا بهِ منَ الهَدي النافعِ للقلوب، كالإيمانِ بمبعثِ الرسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ووجوبِ اتّباعِه، حيثُ بيَّنهُ اللهُ تعالَى في الكتبِ التي أنزلها. فهؤلاءِ الساكتونَ عن الحقّ، الكاتمونَ ما أنزلَ اللهُ من خيرٍ وهُدًى، يَطردُهمُ اللهُ ويُبعِدهم مِن رحمتِه، كما يَلعنُهم كلُّ مَن يتأتَّى منهمُ اللعنُ والدعاءُ عليهم، مِن الملائكةِ ومؤمني الجنِّ والإنس، فهم مَنبوذونَ من أهلِ الحقِّ كلِّهم. (الواضح).

- قولهُ تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ...} [سورة البقرة: ١٧٧].

قال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ الله: {وَالْكِتَابِ} وهو اسمُ جنس، يشملُ الكتبَ المنزلةَ من السماءِ على الأنبياء، حتى خُتمتْ بأشرفها، وهو القرآن، المهيمنُ على ما قبلَهُ من الكتب، الذي انتهَى إليه كلُّ خير، واشتملَ على كلِّ سعادةٍ في الدنيا والآخرة، ونسخَ الله به كلَّ ما سواهُ من الكتبِ قبله. اهـ.

- وقولهُ تعالى: {كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ} [سورة البقرة: ٢١٣].

قال القاضي البيضاوي في تفسيره: {وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ}: يريدُ به الجنس، ولا يريدُ به أنه أَنزلَ مع كلِّ واحدٍ كتابًا يخصُّه، فإن أكثرهم لم يكنْ لهم كتابٌ يخصُّهم، وإنما كانوا يأخذون بكتبِ مَن قبلهم.

قلت: أوردَ هذا الإشكالَ الفخرُ الرازيُّ عند تفسير الآيةِ (٨١) من سورةِ آل عمران، وأجابَ على نفسهِ بقوله:

والجوابُ عنه من وجهين:

الأول: أن جميعَ الأنبياءِ عليهم السلامُ أوتوا الكتاب، بمعنى كونهِ مهتدياً به، داعياً إلى العملِ به، وإن لم ينزلْ عليه.

والثاني: أن أشرفَ الأنبياءِ عليهم السلامُ هم الذين أوتوا الكتاب، فوصفَ الكلَّ بوصفِ أشرفِ الأنواع.

قلت: وردَ في أكثرَ من موضعٍ قولُ المفسِّرين "جنسُ الكتاب"، ويَعني إطلاقُ هذا اللفظِ – كما فهمتهُ – جنسَ ما يُطلَقُ عليه لفظُ الكتاب، بغضِّ النظرِ عن مصدرهِ ومحتواه، والأفضلُ أن يقالَ هنا: "الكتابُ السماوي" مطلقًا، من غيرِ تحديدٍ لاسمه، فقد يكونُ المقصودُ القرآنَ أو التوراةَ أو الإنجيلَ أو الزبور، أو كلُّها، ولو لم يكنْ بصيغةِ الجمع. والله أعلم.

- ووردَ قولهُ تعالى: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [سورة آل عمران: ١٩].

ذهبَ ابنُ جريرٍ الطبريُّ رحمَهُ الله إلى أن معنَى الكتابِ هنا "الإنجيل"، قال: "يعني بذلك جلَّ ثناؤه: وما اختلفَ الذين أوتوا الإنجيل – وهو "الكتاب" الذي ذكرَهُ الله في هذه الآيةِ في أمرِ عيسى، وافترائهم على الله فيما قالوهُ فيه من الأقوالِ التي كثرَ بها اختلافهم بينهم، وتشتَّتتْ بها كلمتهم، وباينَ بها بعضهم بعضًا؛ حتى استحلَّ بها بعضُهم دماءَ بعض – {إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}، يعني: إلا من بعدِ ما علموا الحقَّ فيما اختلفوا فيه من أمره، وأيقنوا أنهم فيما يقولون فيه من عظيمِ الفِريةِ مبطلون. اهـ.

ويبدو أن الأوفقَ هو ظاهرُ ما يُفهَمُ من الآية، من أن المقصودَ "أهلُ الكتاب" عامة، كما قال به آخرون، مثلُ ابنِ كثير، حيثُ قال: أخبرَ تعالى بأن الذين أوتوا الكتابَ الأول، إنما اختلفوا بعد ما قامتْ عليهم الحجَّة، بإرسالِ الرسلِ إليهم، وإنزالِ الكتبِ عليهم.

وأشارَ القرطبيُّ إلى الخلاف، لكن يُعرَفُ اختيارهُ من قوله: أخبرَ تعالى عن اختلافِ أهلِ الكتابِ أنه كان على علمٍ منهم بالحقائق، وأنه كان بغيًا وطلبًا للدنيا. قالهُ ابنُ عمرَ وغيره. قال: وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخير، والمعنَى: وما اختلفَ الذين أوتوا الكتابَ بغيًا بينهم، إلا من بعد ما جاءهم العلم. اهـ.

- وقولهُ تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [آل عمران: ٢٣].

يفهمُ معنى (الكتاب) في الموضعين من تفسيرِ ابنِ كثيرٍ للآيةِ بقوله: يقولُ تعالى منكرًا على اليهودِ والنصارى، المتمسِّكين فيما يزعمون بكتابَيهم اللَّذين بأيديهم، وهما التوراةُ والإنجيل، وإذا دُعوا إلى التحاكمِ إلى ما فيهما من طاعةِ الله فيما أمرهم به فيهما، من اتِّباعِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، تولَّوا وهم معرضون عنهما. اهـ.

- قولهُ سبحانه: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران:٧٨].

(الكتاب) في المواضعِ الثلاثةِ لم يحدِّدهُ المفسِّرون بكتابٍ معيَّن، وإنما عنوا ما نُزِّلَ منها على الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام، هذا لبعضِ من قرأتُ لهم، فيكونُ المقصودُ منها الكتبَ السماوية، كما قال ابنُ كثير:

"يخبرُ تعالى عن اليهود – عليهم لعائنُ الله – أن منهم فريقا يحرِّفون الكلمَ عن مواضعه، ويبدِّلون كلامَ الله، ويُزيلونهُ عن المرادِ به، ليُوهِموا الجهلةَ أنه في كتابِ الله كذلك، وينسبونَهُ إلى الله، وهو كذبٌ على الله، وهم يعلمون من أنفسِهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله؛ ولهذا قال: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}".

وقد أرادَ الفخرُ الرازيُّ أن يحدِّدَ المقصودَ بالكتاب، وأحسبهُ وفِّقَ في ذلك، فقال رحمَهُ الله:

"يجوزُ أن يكونَ المرادُ من الكتابِ التوراة، ويكونُ المرادُ من قولهم: {هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ}، أنه موجودٌ في كتبِ سائرِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام، مثلِ أشعياء، وأرمياء، وحيقوق، وذلك لأن القومَ في نسبةِ التحريفِ إلى الله كانوا متحيِّرين، فإن وجدوا قوماً من الأغمارِ والبُلهِ الجاهلين بالتوراةِ نسبوا ذلك المحرَّفَ إلى أنه من التوراة، وإن وجدوا قوماً عقلاءَ أذكياءَ زعموا أنه موجودٌ في كتبِ سائرِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام، الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام".

- قولهُ سبحانه: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [سورة آل عمران: ٧٩].

المقصودُ بالكتابِ في الموضعين كما يُفهَمُ من كلامِ المفسِّرين، هو الكلامُ الموحَى به من ربِّ العالمين إلى أنبيائه، وإن كان المقصودَ بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والكتابُ المنزَلُ عليه، فإن رسالةَ الأنبياءِ في التوحيدِ واحدة.

وأيَّدَ الطبريُّ في الموضعِ الثاني منه أن يكونَ معناهُ القرآن.

- وفي الآيةِ (٨١) من السورةِ نفسها: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ}.

قال الفخرُ الرازيُّ رحمَهُ الله: الكتابُ هو المنزَلُ المقروء، والحكمة: هي الوحيُ الواردُ بالتكاليفِ المفصَّلةِ التي لم يشتملِ الكتابُ عليها. اهـ.

- وقولهُ تعالى: {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [سورة آل عمران: ١١٨].

أوردَ فيه ابنُ جريرٍ الطبريُّ قولَ ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهما: أي: بكتابكم، وكتابهم، وبما مضَى من الكتبِ قبلَ ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحقُّ بالبغضاءِ لهم منهم لكم.

ويُفهَمُ من تفسيرِ ابنِ كثيرٍ أن معناهُ القرآن.

وأوردَ فيه الفخرُ الرازيُّ ثلاثَ مسائل:

المسألةُ الأولى: في الآيةِ إضمار، والتقدير: وتؤمنون بالكتابِ كلِّهِ وهم لا يؤمنون به، وحسنَ الحذفُ لما بيَّنا أن الضدَّين يُعلَمانِ معاً، فكان ذكرُ أحدهما مُغنياً عن ذكرِ الآخر.
المسألةُ الثانية: ذُكرَ (الكتابُ) بلفظِ الواحدِ لوجوه:

أحدها: أنه ذهبَ به مذهبَ الجنس، كقولهم: كثرَ الدرهمُ في أيدي الناس.

وثانيها: أن المصدرَ لا يُجمَعُ إلا على التأويل، فلهذا لم يقل "الكتب" بدلاً من الكتاب، وإن كان لو قالَهُ لجازَ توسعاً.

المسألةُ الثالثة: تقديرُ الكلام: أنكم تؤمنون بكتبهم كلِّها وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم مع ذلك تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيءٍ من كتابكم؟ وفيه توبيخٌ شديدٌ بأنهم في باطلهم أصلبُ منكم في حقِّكم. اهـ.

- قولهُ سبحانه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سورة آل عمران: ١٦٤].

قال الطبري: يعني: ويعلِّمهم كتابَ الله الذي أنزلَهُ عليه، ويبيّنُ لهم تأويلَهُ ومعانيه، {وَالْحِكْمَةَ}، ويعني بالحكمة: السُّنةَ التي سنَّها الله جلَّ ثناؤهُ للمؤمنين على لسانِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وبيانَهُ لهم. اهـ.

- قولهُ تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} [سورة آل عمران: ١٨٤].

قال الطبريُّ رحمَهُ الله تعالى: يعني: بالكتاب: التوراةَ والإنجيل. وذلك أن اليهودَ كذَّبتْ عيسى وما جاءَ به، وحرَّفتْ ما جاءَ به موسى عليه السلام من صفةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وبدَّلت عهدَهُ إليهم فيه، وأن النصارَى جحدتْ ما في الإنجيلِ من نعته، وغيَّرتْ ما أمرهم به في أمره.

وأما قوله: {الْمُنِيرِ}، فإنه يعني: الذي يُنيرُ فيبيّنُ الحقَّ لمن التبسَ عليه ويوضِّحه. اهـ.

ولم يفرّقْ كثيرٌ من المفسِّرين بين الزبرِ والكتب، لكن قال النسفيُّ في تفسيره – وقريبٌ منه القرطبي –: هما واحدٌ في الأصل، وإنما ذُكِرا لاختلافِ الوصفين، فالزبورُ كتابٌ فيه حِكَمٌ زاجرة، والكتابُ المنيرُ هو الكتابُ الهادي. اهـ.

وذكرَ أن الكتابَ هنا جنسه، ويعني السماويَّ منه.

- وقولهُ تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} [سورة النساء:٥٤].

المقصودُ بالكتابِ هنا جنسه، والمرادُ به التوراةُ والإنجيل، أو هما والزبور. أفادَهُ الآلوسي في تفسيرِهِ "روح المعاني".

- ومثلهُ قولُ الكريمِ المتعال: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [سورة الرعد: ٣٨].

فالكتابُ هنا بمعنى الكتابِ السماويّ.

والمقصودُ أن الكتبَ المنزَلةَ مِن عندِ اللهِ تختلفُ أحكامُها، لأنَّها شُرِعتْ حسَبَ أحوالِ الناسِ وأزمانِهم، وقد نزَلتْ في أوقاتٍ متفاوتة، ولكلِّ وقتٍ كتابٌ يناسبُه.

فالمقصودُ من الآيتين "الكتبُ السماوية"، سواءٌ جاءَ لفظُ "الكتاب" مفردًا أم جمعًا، وقد جُمِعَ هذا في قولهِ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} [سورة النساء: ١٣٦].

فمعنَى الكتابِ في الموضعِ الأول: القرآن، وفي الموضعِ الثاني: الكتبُ السماوية. وسبقَ الحديثُ عن سببِ إفرادِ (الكتاب). وفي الموضعِ الثالثِ كما هو بيّن.

- وبمعنَى الكتابِ السماويّ أيضًا: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ} [سورة النساء:١٥٣].

أي: يسألُكَ أهلُ الكتابِ ممَّن فرَّقوا بين الرُّسُل، أن تنزِّلَ عليهم كتاباً منَ السَّماء، جملةً واحدةً وبخطٍّ سماويّ، كما كان شأنُ التَّوراة. وقد سألوا ذلكَ على سبيلِ التعنُّتِ والعِناد، والكفرِ والإلحاد، كما سألَ كفّارُ قُرَيشٍ قبلَهم نظيرَ ذلك: {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ} [سورة الإسراء: ٩٣]، فلا تهتمَّ بهم وبمطالبِهم المغرضةِ هذه... (الواضح في التفسير).

- وقال الله تعالى: {يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [سورة المائدة:١٥].

المقصودُ بالكتابِ في الموضعِ الأول: التوراةُ والإنجيل، وفي الموضعِ الآخرِ من الآية: القرآنُ الكريم.

وتفسيرُ الآية: يا أهلَ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارَى، لقد أرسلنا رسولَنا محمَّداً صلى الله عليه وسلم إليكم وإلى العالمينَ جميعاً بالحقِّ والهُدى، يبيّنُ لكم كثيراً ممّا كنتُم تُخفُونَ من التوراةِ والإنجيل، تبديلاً وتحريفاً، وتأويلاً وافتراءً على الله، كصفةِ النبيّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وكآيةِ الرجم، وكبِشارةِ عيسى بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. ويُعْرِضُ عن كثيرٍ ممّا أخفَيتُموهُ فلا

يُظهِرُه. وقد جاءَكم نورٌ عظيمٌ من اللهِ تعالَى يُفَرَّقُ بهِ بين الحقِّ والباطل، هو محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، والقرآنُ الكريم، الواضحُ البيّنُ في آياتهِ وأحكامِه. (الواضح في التفسير).

- وقولهُ سبحانه: {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} [سورة المائدة: ٤٨].

الكتابُ فيما وردَ أولاً معناهُ القرآن، وفيما وردَ آخرًا: {مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ}، قال الفخرُ الرازي: أي: كلُّ كتابٍ نزلَ من السماءِ سوى القرآن.

- وقولهُ سبحانه: {ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ} [سورة الأنعام: ٢٠].

{ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ} هم أهلُ الكتاب.

قال القاضي البيضاوي رحمَهُ الله في تفسيره (أنوار التنزيل): {ٱلَّذِينَ آتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُ}: يعرفون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بحليتهِ المذكورةِ في التوراةِ والإنجيل، {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ} بحُلاهم.

- وقولهُ جلَّ جلاله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [سورة الأنعام: ٨٩].

قال أبو جعفر الطبري: يعني تعالى ذكره بقولهِ {أُولَئِكَ}: هؤلاء الذين سميناهم من أنبيائهِ ورسله، نوحًا وذريتَهُ الذين هداهم لدينِ الإسلام، واختارهم لرسالتهِ إلى خلقه، هم {الَّذِينَ

آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، يعني بذلك: صحفَ إبراهيم وموسى، وزبورَ داود، وإنجيلَ عيسى، صلواتُ الله عليهم أجمعين. {وَالْحُكْمَ}: يعني الفهمَ بالكتاب، ومعرفةَ ما فيه من الأحكام.اهـ.

- وقولهُ تعالى: {أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [سورة الأنعام: ١٥٦].

المقصودُ بالطائفتين: اليهودُ والنصارى، فيكونُ معنى الكتاب: التوراةُ والإنجيل.

وتفسيرُ الآية: قد أنزلنا إليكم القرآنَ لئلاّ تقولوا إنَّ الكتابَ أُنزِلَ على اليهودِ والنصارَى، ونحنُ لا نَفهمُ قولَهم، وليسَ هو بلسانِنا، ولا نعرفُ قراءةَ ما فيه. (الواضح في التفسير).

- والآيةُ (١٥٧) من السورةِ نفسها: {أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ}.

يوردُ المفسِّرون الكتابَ بلفظه، ويعنونَ به جنسَ الكتابَ السماوي، لكنْ بما أن ما طلبتهُ قريشٌ آلَ إلى القرآنِ الكريم، فيمكنُ أن يقالَ إن معناهُ القرآنُ أيضًا. والله أعلم.

وتفسيرُ الآيةِ الكريمة: وقطَعنا العذرَ عنكم إذا تحاجَجتُم وقلتُم: إذا نزلَ علينا الكتابُ لنَكونَنَّ أهدَى منهم (اليهودِ والنصارى) إلى الحقّ، وأسرعَ إلى الاستجابةِ لنداءِ اللهِ منهم، فهذا هو القرآنُ قد جاءَكم مِن عندِ اللهِ بلسانٍ عربيٍّ مبين، وفيه ما اشتملت عليه التوراةُ منَ الهدايةِ والرَّحمةِ بالنَّاس، وتبيينِ الأحكام، وذكرِ الحلالِ والحرام. (الواضح في التفسير).

- والآيةُ (١٧٠) من سورةِ الأعراف: {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}.

روى الطبريُّ عن ابنِ زيد: كتابُ الله الذي جاءَ به موسى عليه السلام.

وعن مجاهد قوله: {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ}: من يهودٍ أو نصارى.

وهذا يعني أن المرادَ بالكتابِ التوراةُ والإنجيل.

ويُفهَمُ من قولِ عطاءٍ أن المقصودَ هو القرآن، فقد ذكرَ أن معنى {يُمَسِّكُونَ}: أمَّةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

وقد اختارَ القرطبيُّ معنى التوراة.

ويبدو من اختيارِ ابنِ كثيرٍ أنه يعني التوراةَ والإنجيلَ أيضًا، قال: ثم أثنَى تعالَى على من تمسَّكَ بكتابهِ الذي يقودهُ إلى اتِّباعِ رسولهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، كما هو مكتوبٌ فيه. اهـ.

قلت: وهذا مكتوبٌ في التوراةِ والإنجيل، فيكونُ اختياره.

- وقولهُ سبحانه: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [سورة يونس: ٩٤].

قال الفخرُ الرازيُّ في تفسيرهِ الكبير: اختلفوا في أن المسؤولَ منه في قوله: {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ} من هم؟ فقال المحقِّقون: هم الذين آمنوا من أهلِ الكتاب، كعبدالله بن سلاّم، وعبدالله بن صوريا، وتميم الداري، وكعب الأحبار؛ لأنهم هم الذين يوثَقُ بخبرهم. ومنهم من قال: الكلُّ، سواءٌ كانوا من المسلمين أو من الكفار؛ لأنهم إذا بلغوا عددَ التواتر، ثم قرؤوا آيةً

من التوراةِ والإنجيل، وتلك الآيةُ دالَّةٌ على البشارةِ بمقدمِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فقد حصلَ الغرض.

واستنتجَ الطبريُّ من الآثارِ الواردةِ في ذلك أن المرادَ (التوراةُ والإنجيل)، قال رحمَهُ الله: يقولُ تعالى ذكرهُ لنبيِّهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم: فإنْ كنتَ يا محمدُ في شكٍّ من حقيقةِ ما أخبرناك وأُنزِلَ إليكَ من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوَّتِكَ قبل أن تُبعثَ رسولاً إلى خلقه؛ لأنهم يجدونكَ عندهم مكتوباً، ويعرفونكَ بالصفةِ التي أنتَ بها موصوفٌ في كتابهم في التوراةِ والإنجيل، فاسألِ الذين يقرؤون الكتابَ من قبلِكَ من أهلِ التوراةِ والإنجيل، كعبدالله بن سلاّمٍ ونحوهِ من أهلِ الصدقِ والإيمانِ بكَ منهم، دون أهلِ الكذبِ والكفرِ بكَ منهم.

- وقولهُ تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} [سورة الرعد: ٣٦].

قال ابنُ كثير: {وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} وهم قائمون بمقتضاه {يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ} أي: من القرآن؛ لما في كتبهم من الشواهدِ على صدقهِ والبشارةِ به.

وقد فصَّلَ القولَ الفخرُ الرازيُّ في تفسيرهِ الكبير، فكان مما قال: اعلمْ أن في المرادِ بالكتابِ قولين:

الأول: أنه القرآن، والمرادُ أن أهلَ القرآنِ يفرحون بما أُنزِلَ على محمد، من أنواعِ التوحيدِ والعدلِ والنبوةِ والبعثِ والأحكامِ والقصص، ومن الأحزابِ الجماعاتُ من اليهودِ والنصارى وسائرِ الكفارِ مَن يُنكرُ بعضه، وهو قولُ الحسنِ وقتادة.

والقولُ الثاني: إن المرادَ بالكتابِ التوراةُ والإنجيل.. ثم فصَّل، وقال: قال القاضي: وهذا الوجهُ أولَى من الأول؛ لأنه لا شبهةَ في أن من أُوتِيَ القرآنَ فإنهم يفرحون بالقرآن، أما إذا حملناهُ على هذا الوجهِ ظهرت الفائدة.. اهـ.

- وقولُ الله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [سورة الرعد: ٤٣].

قال القاضي البيضاوي: {وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ}: علمُ القرآنِ وما ألفَ عليه من النظمِ المعجز، أو علمُ التوراة، وهو ابنُ سلام وأضرابه، أو علمُ اللوحِ المحفوظ، وهو اللهُ تعالى، أي: كفَى بالذي يستحقُّ العبادةَ وبالذي لا يعلمُ ما في اللوحِ المحفوظِ إلا هو، شهيداً بيننا، فيخزي الكاذبَ منا.

وقال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ الله تعالى بعد ذكرِ الأقوالِ في المرادِ من (الكتاب) الواردِ في الآية: والصحيحُ في هذا أن {وَمَنْ عِندَهُ} اسمُ جنس، يشملُ علماءَ أهلِ الكتابِ الذين يجدون صفةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ونعتَهُ في كتبهم المتقدِّمةِ من بشاراتِ الأنبياءِ به. اهـ.

- قولُ الله تعالى: قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [سورة النمل: ٤٠].

اختلفَ المفسِّرون في المقصودِ من (الكتابِ) في الآية، والذي يُفهَمُ أنه كتابٌ سماوي.

قال الفخرُ الرازي: اختلفوا في الكتاب:

فقيل: اللوحُ المحفوظ، والذي عندهُ علمٌ منه جبريلُ عليه السلام.

وقيل: كتابُ سليمان، أو كتابُ بعضِ الأنبياء.

ومعلومٌ في الجملةِ أن ذلك مدح، وأن لهذا الوصفِ تأثيراً في نقلِ ذلك العرش، فلذلك قالوا إنه الاسمُ الأعظم، وإن عندَهُ وقعتِ الإجابةُ من الله تعالى في أسرعِ الأوقات. اهـ.

قال القرطبيُّ رحمَهُ الله: أكثرُ المفسِّرين على أن الذي عندَهُ علم من الكتابِ آصفُ بنُ برخيا، وهو من بني إسرائيل، وكان صدِّيقاً، يحفظُ اسمَ الله الأعظم، الذي إذا سُئل به أَعْطى، وإذا دُعِيَ به أجاب.

- وقولهُ سبحانه: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة القصص: ٤٩].

تفسيرُ الآيةِ الكريمة: قلْ لليهودِ أيُّها النبيّ: فهاتوا كتابًا آخرَ مِن عندِ اللهِ يكونُ أعظمَ وأجلَّ مِن القرآنِ والتَّوراةِ أَسِرْ على هَديه، إذا كنتُم صادقينَ في قولِكم بأنَّهما غيرُ مُوحًى بهما مِن عندِ الله.

والتَّوراةُ أعظمُ كتابٍ سماويٍّ بعدَ القرآن، وقد حكمَ بها نبيُّونَ كُثرٌ بعدَ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، والإنجيلُ نزلَ متمِّمًا لها. وقد بُدِّلا وحُرِّفا، ونُسِخَتْ جميعُ الكتبِ السَّماويَّةِ بالقرآنِ الكريم. (الواضح في التفسير).

- والآيةُ (٥٢) من السورةِ نفسها: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ}.

قال الطبريُّ رحمَهُ الله: يعني بذلك تعالَى ذكرهُ قومًا مِن أهلِ الكتابِ آمنوا برسولهِ وصدَّقوه، فقال: الذين آتيناهم الكتابَ من قبلِ هذا القرآن، هم بهذا القرآنِ يؤمنون، فيقرُّون أنه حقٌّ مِن عندِ الله، ويكذِّبُ جهلةَ الأميّين، الذين لم يأتهم من اللهِ كتاب.

وقال القرطبيُّ في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): أخبرَ أن قوماً ممن أُوتوا الكتابَ من بني إسرائيلَ مِن قبلِ القرآن، يؤمنون بالقرآن؛ كعبدالله بن سلاّم وسلمان. ويدخلُ فيه مَن أسلمَ مِن علماءِ النصارى، وهم أربعون رجلاً...

- قال الله تعالى في إبراهيمَ عليه السلام: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [سورة العنكبوت: ٢٧].

قال القاضي البيضاوي في تفسيره: {وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ}: فكثرَ منهم الأنبياء. {وَٱلْكِتَٰبَ}: يريدُ به الجنسَ ليتناولَ الكتبَ الأربعة. اهـ.

يعني القرآنَ والتوراةَ والإنجيلَ والزبور.

- وقال عزَّ وجلَّ: {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ} [سورة سبأ: ٤٤].

أي: ما أنزلَ الله على العربِ من كتابٍ قبلَ القرآن، وما أرسلَ إليهم نبيًّا قبلَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وقد كانوا يودُّون ذلك. (تفسير ابن كثير).

- وقولُ الله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} [سورة فاطر: ٢٥].

وتفسيرها: وإذا كذَّبكَ المشركون، فقد كذَّبَ مشركون أمثالُهم ممَّن مضَوا، فقد جاءَتْهم رسلُهم بالمعجزاتِ البيّنةِ والأدلَّةِ القاطعة، وبالصحفِ والكتبِ المنزَلَةِ عليهم مِن الله، المضيئةِ في أخبارِها الصَّادقةِ وأحكامِها العادلة. (الواضح في التفسير).

قال القرطبيُّ رحمَهُ الله في تفسيره: {جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ} أي: بالمعجزاتِ الظاهراتِ والشرائعِ الواضحات. {وَبِٱلزُّبُرِ} أي: الكتبِ المكتوبة. {وَبِٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ} أي: الواضح. وكرَّرَ الزبرَ والكتابَ وهما واحدٌ لاختلافِ اللفظين. وقيل: يرجعُ البيناتُ والزبرُ والكتابُ إلى معنًى واحد، وهو ما أُنزِلَ على الأنبياءِ من الكتب.

- وقوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} [سورة فاطر: ٤٠].

لم أجدْ من فسَّرَ لفظَ (الكتابِ) هنا، بل يوردونَهُ كما هو، يعني أنه كتابٌ من الله، فيفهمُ أنه (إشعارٌ) منه سبحانه، أو دالٌّ على أنه سماويّ، مادامَ من عنده.

لكنْ وضَّحَهُ القرطبيُّ بما يدلُّ على ذلك، فقال: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً} أي: أم عندهم كتابٌ أنزلناهُ إليهم بالشركة؟ وكان في هذا ردٌّ على مَن عبدَ غيرَ الله عزَّ وجلّ؛ لأنهم لا يجدون في كتابٍ من الكتبِ أن الله عزَّ وجلَّ أمرَ أن يُعبَدَ غيرُه.

- وقولهُ عزَّ وجلَّ: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [سورة الشورى: ١٤].

المرادُ بالذين أُورِثوا الكتابِ هم أهلُ الكتابِ المتأخِّرون، الذين ورثوا الكتابَ ممن قبلهم.

وتفسيرُ هذا الجزءِ من الآية: وإنَّ أهلَ الكتابِ المتأخِّرينَ في شكٍّ مِن كتابِهم، وحَيرَةٍ مِن أمرِهم. (الواضح).

- والآيةُ التاليةُ لها: {وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ}.

أي: صدَّقتُ بجميعِ الكتبِ المنزَلةِ من السماءِ على الأنبياء، لا نفرِّقُ بين أحدٍ منهم. (ابن كثير).

- وقولهُ تعالى: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} [سورة الشورى: ١٧].

ذهبَ الطبريُّ إلى أن المرادَ بالكتابِ هنا القرآن.

لكن قال ابنُ كثيرٍ وغيرهُ إن المقصودَ الكتابُ السماوي. قال رحمَهُ الله:

{ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ} يعني الكتبَ المنزلةَ من عندهِ على أنبيائه، {وَٱلْمِيزَانَ} وهو العدلُ والإنصاف، قالهُ مجاهدٌ وقتادة.

- قولهُ تعالى: {أَمْ آَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} [سورة الزخرف: ٢١].

قال الفخرُ الرازيُّ في تفسيرهِ الكبير: المعنَى أنهم هل وجدوا ذلكَ الباطلَ في كتابٍ منزَّلٍ قبل القرآنِ حتى جازَ لهم أن يعوِّلوا عليه، وأن يتمسَّكوا به؟ والمقصودُ منه ذكرهُ في معرضِ الإنكار، ولما ثبتَ أنه لم يدلَّ عليه، لا دليلٌ عقلي، ولا دليلٌ نقلي، وجبَ أن يكونَ القولُ به باطلاً.

- وقولهُ سبحانه: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [سورة الجاثية: ١٦].

{وَلَقَدْ آتَيْنا} يا محمَّدُ {بَنِي إسْرائِيلَ الكِتابَ} يعني التوراةَ والإنجيل، {والحُكْمَ} يعني الفهمَ بالكتاب، والعلمَ بالسننِ التي لم تنزلْ في الكتاب، {وَالنُّبُوَّةَ} يقول: وجعلنا منهم أنبياءَ ورسُلاً إلى الخلق. (الطبري).

- وقال الله تعالَى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الأحقاف: ٤].

{ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ} أي: هاتوا كتاباً من كتبِ الله المنزَلةِ على الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ يأمركم بعبادةِ هذه الأصنام، {أَو أَثَٰرَةٍ مِّن عِلمٍ} أي: دليلٍ بيّنٍ على هذا المسلكِ الذي سلكتموهُ {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} أي: لا دليلَ لكم لا نقليًّا ولا عقليًّا على ذلك. (ابن كثير).

- وقال سبحانه: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [سورة الحديد: ٢٥].

قال الشوكاني رحمَهُ الله: {وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ} المرادُ الجنس، فيدخلُ فيه كتابُ كلِّ رسول.

وكذا قال في (روح المعاني): أي: جنسُ الكتابِ الشاملِ للكلّ.

وتفسيرُ الآيةِ كما وردَ في (زاد المسير) لابنِ الجوزي:

قولهُ تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالآياتِ والحجج، {وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ} ببيانِ الشرائعِ والأحكام.

وفي "الميزان" قولان:

أحدهما: أنه العدل، قالَهُ ابنُ عباسٍ وقتادة.

والثاني: أنه الذي يوزَنُ به، قالَهُ ابنُ زيدٍ ومقاتل.

فعلى القولِ الأولِ يكونُ المعنى: وأَمرنا بالعدل.

وعلى الثاني: ووضعنا الميزان، أي: أمرنا به.

{لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} أي: لكي يقوموا بالعدل. اهـ.

- والآيةُ التاليةُ لها: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}.

يقولُ تعالَى ذكره: ولقد أرسلنا – أيها الناسُ – نوحاً إلى خلقنا، وإبراهيمَ خليلَهُ إليهم رسولاً، {وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ وَالكِتابَ} وكذلك كانت النبوَّةُ في ذرّيتهما، وعليهم أُنزلَتِ الكتب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وسائرُ الكتبِ المعروفة. (تفسير الطبري).

- وقولهُ تعالَى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [سورة التحريم: ١٢].

قال الإمامُ البغويُّ في بيانِ المقصودِ من الشاهد: أرادَ بكتبه: التي أُنزلتْ على إبراهيم, وموسَى, وداود, وعيسى عليهم السلام.

وتفسيرُ الآيةِ الكريمة: والصِّدِّيقَةَ الطَّاهرةَ مريمَ بنتَ عِمران، التي صانتْ عِرضَها، وحَفِظتْ فرجَها مِن دنَسِ المعصية، فنفَخنا فيه بواسطةِ جبريل، فحملتْ بعيسَى عليهِ السَّلام، وآمنتْ بوحي الله، وشرائعهِ لعبادِه، وكتُبِهِ المنزَلَة، وكانتْ مِن القومِ المؤمنينَ المواظبينَ على الطَّاعةِ والعبادة، فأكرمَها اللهُ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة. (الواضح).

- وقولهُ سبحانهُ وتعالى: {أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ} [سورة القلم: ٣٧].

تفسيرها: أفبأيديكم كتابٌ منزَّلٌ من السماءِ تدرسونَهُ وتحفظونه، وتتداولونَهُ بنقلِ الخلفِ عن السلف، متضمِّنٌ حكمًا مؤكَّدًا كما تدَّعونه؟ (ابن كثير).

الكتاب

بمعنى التوراة

ويأتي لفظُ "الكتاب" في القرآن الكريمِ بمعنى "**التوراة**":

- كقولهِ سبحانه: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} الآية ٤٤ من سورة البقرة.

والضميرُ يعودُ إلى بني إسرائيل، كما في الآيةِ (٤٠) من السورةِ نفسها.

والمرادُ بالكتابِ هنا التوراة، كما رواهُ ابنُ جريرٍ الطبريُّ في تفسيرهِ عن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهما، وقال: يعني بقوله {تَتْلُونَ}: تدرسون وتقرؤون.

- وكقولهِ تعالى: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [سورة البقرة:٥٣].

أي: أعطَينا موسى التوراة: كتابًا منزَّلاً وحجَّةً يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطل.

- وقولهُ تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [سورة البقرة: ٧٨].

أي: لا يعلمون "التوراة"، فالحديثُ عن بني إسرائيل.

قال صاحبُ "روح المعاني": والكتاب: التوراة، كما يقتضيهِ سباقُ النظمِ وسياقه. اهـ.

ومعنى الآيةِ الكريمة: ومِن أهلِ الكتابِ مَن لا يَعرفونَ الكتابة، ويَجهلونَ ما وردَ في التوراةِ، فلا يفقهونَ شيئاً، ولا يتكلَّمونَ إلاّ بأوهامٍ وظنون.. (الواضح).

- ويلي الآيةَ قولهُ سبحانه: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}.

والمرادُ من "الكتاب" في الآيةِ التوراةُ أيضًا، فقد كان فريقٌ من اليهودِ يَدعونَ إلى الضلال، فيزوّرونَ ما في التوراة، يَكتبونَ بأيديهِم ما ليسَ منها، ويقولونَ إنهُ مِن عندِ اللهِ مقابلَ هدفٍ حقيرٍ وطمعٍ زائِل، هوَ أن يُعطَوا مبلغاً زهيداً منَ المال! (الواضح).

- وكذلك قولهُ تعالى: {ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [سورة البقرة: ٨٥].

الكتابُ هنا أيضًا بمعنَى التوراة، فالحديثُ متصل.

ومعنى الآيةِ كما في "الواضح في التفسير": ولكنَّكم نقضتُم الميثاقَ في هذا كما نقضتُموهُ في غيرِه، فصارَ يَقتلُ بعضُكم بعضًا، ففريقٌ معَ الأوسِ وفريقٌ معَ الخزرَج. كما تُخرِجونَ بعضَكم من بيوتِ بعض، وتَنهَبونَ ما فيها منَ المالِ والمتاعِ وتأخذونَ سباياهُم، وتُقَوُّونَ أعداءَكُم على بعضِكم البعض، وتساعدونَهم عليهم، وإذا انتهتِ الحربُ تَفكُّون الأُسارَى منَ الفريقِ المغلوبِ وتُفادونَهُم ولا تَقتلونَهم عملاً بحُكمِ التوراة، ولكنْ لماذا تعملونَ هنا بالتوراةِ بينما تناقضونَ أحكامَها فيما مضَى ويَقتلُ بعضُكم بعضاً في الحربِ وهو محرَّمٌ عليكم؟ أفتؤمِنونَ ببعضِ التوراةِ وتكفُرونَ بالبعضِ الآخَرِ فيه؟

- والآيةُ (٨٧) من سورةِ البقرةِ جاءَ فيها لفظُ "الكتاب"، ويعني أيضًا التوراة، التي أُنزلت على موسى عليه السلام، وهي قولهُ تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ}.

- وورد لفظُ "الكتاب" مرتينِ في الآيةِ التالية، ويُرادُ بهما التوراة، وهو قولهُ تعالى: {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ١٠١].

قال صاحبُ (روح المعاني) رحمَهُ الله: {نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ} أي: التوراة، وهم اليهودُ الذين كانوا في عهدِهِ صلى الله عليه وسلم، لا الذين كانوا في عهدِ سليمان عليه السلامُ كما توهَّمهُ بعضهم.

{كِتَابَ اللهِ} قال: المرادُ به التوراة، لما رُويَ عن السدِّي أنه قال: لما جاءهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم عارضوهُ بالتوراة، فاتفقتِ التوراةُ والفرقان، فنبذوا التوراةَ وأخذوا بكتابِ آصفَ وسحرِ هاروتَ وماروتَ فلم توافقِ القرآن. اهـ.

- وقوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة البقرة: ١٧٤].

أفادَ الطبريُّ أن المقصودَ بمن كتمَ أخبارَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم هم أهلُ الكتاب، ويعني اليهودَ والنصارى، ويكونُ المرادُ من الكتابِ التوراةَ والإنجيل.

لكن يبدو أن ابنَ كثيرٍ رحمَهُ الله حصرَهُ في التوراة، ربما لأنه الأصلُ عند أهلِ الكتاب، فقال: يعني اليهودَ الذين كتموا صفةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهدُ له بالرسالةِ والنبوَّة، فكتموا ذلك لئلا تذهبَ رئاستُهم وما كانوا يأخذونهُ من العربِ من الهدايا والتحفِ على تعظيمهم إياهم، فخشوا – لعنهم الله – إنْ أظهروا ذلك أن يَتَّبعَهُ الناسُ ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصلُ لهم من ذلك. اهـ.

- وقال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ} [النساء: ٤٤].

قال الطبريُّ في تفسيرِ موضعِ الشاهد: إن الله جلَّ ثناؤهُ أخبرَ عن طائفةٍ من اليهودِ الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهاجَرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في عهده، ممن قد أوتيَ علمًا بالتوراة، أنهم دُعوا إلى كتابِ الله الذي كانوا يقرُّون أنه من عند الله – وهو التوراةُ – في بعضِ ما تنازعوا فيه هم ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

- قولهُ تعالى: { إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلاَ تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ } [سورة المائدة: ٤٤].

المرادُ بكتابِ الله هنا: التوراة، كما أفادَهُ الطبريُّ وغيره.

قال رحمَهُ الله: {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ} فإن معناه: يحكمُ النبيون الذين أسلموا بحكمِ التوراة، والربانيون والأحبار – يعني العلماء – بما استودعوا علمَهُ من كتابِ الله، الذي هو التوراة.

- والآيةُ (٩١) من سورةِ الأنعام: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ}. فالكتابُ هنا التوراةُ كما هو واضح.

قال ابنُ كثيرٍ ما ملخصه: قلْ يا محمَّدُ لهؤلاء المنكرين لإنزالِ شيءٍ من الكتبِ من عندِ الله: {مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ} وهو التوراة، التي قد علمتم وكلُّ أحد، أن الله قد أنزلها على موسى بنِ عمران، {نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} أي: ليُستضاءَ بها في كشفِ المشكلات، ويُهتدَى بها من ظُلَمِ الشبهات.

- ومثلها الآية (١٥٤) من السورةِ نفسها: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}.

قال القاضي البيضاوي في تفسيرها: {تَمَامًا}: للكرامةِ والنعمة، {عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنَ}: على كلِّ مَن أحسنَ القيامَ به.

لكن قال ابنُ كثير: آتيناهُ الكتابَ الذي أنزلناهُ إليه تمامًا كاملاً جامعًا لجميعِ ما يحتاجُ إليه في شريعته.

- ووردَ لفظُ الكتابِ مرَّتين في الآيةِ التالية، والمرادُ منه فيهما التورة، وهو قولهُ تعالى: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ} [الأعراف: ١٦٩].

وتفسيرها: فجاءَ مِن بعدِهم جيلٌ انتقلتْ إليهمُ التوراةُ مِن آبائهم، فصاروا يأخذونَ الرِّشا مقابلَ أقضيةٍ جائرةٍ ويقولون إنَّ حكمَها مِن التوراة، وأخذوا يزوِّرونَ ويُحرِّفونَ فيها بما يوافقُ أهواءَهمُ الزائغة وآراءَهمُ الفاسدة، لا يبالونَ بحلالٍ ولا حرام، ولا حقٍّ ولا باطل، والمهمُّ عندهمُ المالُ ومتاعُ الدُّنيا، ثمَّ يقولونَ بعدَ هذه الأفعالِ الشَّنيعة: إنَّ اللهَ سيتجاوزُ عنّا ولا

يعذِّبُنا! وإذا جاءَتهم صفقةٌ ماليَّةٌ فاجرةٌ منَ الغد، عادوا إلى ما كانوا عليه، لحرصِهم على الدُّنيا، وإصرارِهم على الذُّنوب، وكذبِهم في طلبِ المغفرة، غيرَ تائبينَ ولا مُقلِعينَ عنها.

أمَا أُخِذَ منهم ميثاقٌ ووعدٌ مؤَكَّدٌ منَ التوراةِ ألاّ يقولوا على اللهِ إلاّ ما قالَهُ حقًّا، وأنْ يبيّنوهُ للناسِ كما هو، فلا يزيدوا ولا ينَقُّصوا، وقد دَرَسوا التوراةَ وعَلِموا ذلك، وهم يَذكرونَهُ جيّداً.. (الواضح في التفسير).

- وبمعنى التوراةِ أيضًا: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [سورة هود: ١٧].

  وباللفظِ نفسه: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً} في الآيةِ (١٢) من سورةِ الأحقاف.

  فكتابُ موسى عليه الصلاةُ والسلام: التوراة.

وقال القاضي البيضاوي في معنَى {إِمَامًا وَرَحْمَةً}: {إِمَامًا}: كتابًا مؤتمًّا به في الدين، {وَرَحْمَةً}: على المنزَلِ عليهم؛ لأنه الوصلةُ إلى الفوزِ بخيرِ الدارين.

- ومثلهُ في الآيةِ (١١٠) من السورةِ نفسها: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ}.

قال الفخرُ الرازي: لما أُنزِلَ التوراةُ على موسى عليه السلام اختلفوا فيه، فقبلَهُ بعضهم وأنكرَهُ آخرون، وذلك يدلُّ على أن عادةَ الخلقِ هكذا.

- وكذا قولهُ تعالى في الآيةِ الثانية من سورةِ الإسراء: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا}.

قال الإمامُ الطبري في تفسيره: وجعلنا الكتابَ – الذي هو التوراةُ – بيانًا للحقّ، ودليلاً لهم على محجَّةِ الصوابِ فيما افترضَ عليهم، وأمرهم به، ونهاهم عنه.

- وقولهُ سبحانه: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} [سورة الإسراء: ٤].

قال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ الله: يخبرُ تعالى أنه قضَى إلى بني إسرائيلَ في الكتاب، أي: تقدَّمَ إليهم وأخبرهم في الكتابِ الذي أنزلَهُ عليهم، أنهم سيُفسدون في الأرضِ مرتين، ويعلون علوًّا كبيرًا، أي: يتجبَّرون ويَطغون، ويَفجُرون على الناس.

- وفي الآية (٤٩) من سورةِ المؤمنون: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}.

قال ابنُ الجوزي في (زاد المسير) ما ملخصه: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} يعني التوراة، أُعطيَها جملةً واحدةً بعد غرقِ فرعون، لعلَّ بني إسرائيلَ يهتدوا بها.

- وقولهُ عزَّ وجلَّ: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا} [سورة الفرقان: ٣٥].

قال مكيُّ بن أبي طالب في تفسيره: أي: آتينا موسى التوراة، كما آتيناكَ يا محمَّدُ القرآن.

- ومثلهُ قولهُ سبحانه: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة السجدة: ٢٣].

وتفسيرها: ولقد آتينا موسَى التَّوراةَ المصدِّقةَ للقرآن، فلا تكنْ في شكٍّ من لقاءِ موسَى.

وقد رآهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ليلةَ أُسرِيَ به، ووصفَه، كما رواهُ البخاريُّ وغيره.

ووردَ أنَّ المعنى: لا تكنْ في شكٍّ من تلقِّي الكتاب، فإنَّكَ تتلقَّاهُ كما تلقَّى موسَى الكتاب.

وجعلنا التَّوراةَ هاديًا لبني إسرائيلَ من الضَّلالة. (الواضح في التفسير).

- وذكرَ الله تعالَى موسى وهارونَ فقال: {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ} [سورة الصافات: ١١٧].

قال الشوكاني في تفسيرِهِ (فتح القدير): المرادُ بالكتاب: التوراة، والمستبين: البيِّنُ الظاهر، يقال: استبانَ كذا. أي: صارَ بيِّنًا.

- وقال تعالَى جَدُّه: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ} [سورة غافر: ٥٣].

قال ابنُ الجوزي في تفسيرِهِ (زاد المسير): {وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ} بعد موسى، وهو التوراةُ أيضًا في قولِ الأكثرين. وقال ابنُ السائب: التوراةُ والإنجيلُ والزَّبور. اهـ.

وتفسيرُ الآية: ولقد آتَينا موسَى بنَ عِمرانَ مِن العلمِ والوحي، ما يُهتدَى به إلى الحقِّ والصَّواب، وأبقَينا لبني إسرائيلَ التَّوراة. (الواضح في التفسير).

- وقولهُ تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ} [سورة فصّلت: ٤٥].

قال القرطبي: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ} يعني التوراة، {فَٱخْتُلِفَ فِيهِ} أي: آمنَ به قومٌ وكذَّبَ به قوم.

الكتاب

بمعنى الإنجيل

ويأتي لفظُ "الكتاب" في القرآنِ أيضًا بمعنى "**الإنجيل**":

- كما في قولهِ سبحانهُ في كتابهِ الكريمِ على لسانِ عيسى عليه السلام: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً} [سورة مريم: ٣٠].

أي: فتكلَّمَ عيسى عليه السَّلام وقال: إِنِّي عَبدُ اللهِ – وسبحانَ مَنْ جعلَ هذا أوَّلَ كلامِه – قضَى ربِّي أن يؤتيَنِي الإنجيل، ويَجعلَني نبيًّا. (الواضح في التفسير).

الكتاب

بمعنى القرآن

يردُ لفظُ "الكتاب" في كتابِ الله تعالى ويُرادُ به "**القرآن**"، كما في آياتٍ كثيرة:

- مثلَ الآيةِ الثانيةِ في سورةِ البقرة: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}.
  أي: هذا القرآنُ لا شكَّ أنه نزلَ من عند الله.

- وقولهِ تعالى: {وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة البقرة: ٨٩].

وقد كان اليهودُ قبلَ مَبعثهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يَستَنصِرونَ بهِ على أعدائهم المشركينَ إذا قاتَلوهم، يقولون: إنَّ نبيًّا يُبعَثُ نتَّبعُه، قد أظلَّ زمانُهُ، نقتلُكم معهُ قَتلَ عادٍ وإرَم. فلمَّا بُعِثَ صلى الله عليه وسلم مِن قريشٍ وهم يعرفونَ أنهُ هو، بصفاته، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يَقولونَ فيه، ولم يؤمنوا بالقرآنِ الموحَى به إليه. (الواضح).

- وقال الله تعالى: {رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ} [سورة البقرة: ١٢٩].

قال القرطبيُّ في تفسيره: الكتاب: القرآن، والحكمة: المعرفةُ بالدِّين، والفقهُ في التأويل، والفهمُ الذي هو سجيَّةٌ ونورٌ من الله تعالى.

- وكذا قولهُ تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ١٥١].

فالكتابُ هنا بمعنى القرآن، كما في تفسيرِ الطبريّ وغيره.

- والآية (١٧٦) من سورةِ البقرة: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نزلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}.

أفادَ الإمامُ الطبريُّ أن المرادَ بالكتابِ في الموضعين هو القرآنُ الكريم، وذهبَ ابنُ كثيرٍ إلى أن معناهُ في الموضعِ الأولِ القرآنُ وما أُنزِلَ من الكتبِ على الأنبياءِ السابقين عليهم الصلاةُ والسلام، فيكونُ المقصودُ عندهُ الكتبَ السماوية، أما الكتابُ في الموضعِ الثاني فلم يختلفْ عنه في دلالتهِ على القرآن.

وفي (روح المعاني) أن المقصودَ به في الموضعِ الأول: القرآن، أو التوراة. وفي الموضعِ الثاني: جنسُ الكتاب، بأن آمَنوا ببعضِ كتبِ الله تعالى وكفروا ببعض. أو في التوراة. هكذا.

وهذا الاختلافُ مع إضافاتٍ موجودٌ في تفاسيرَ أخرى.

- قولهُ عزَّ وجلَّ: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ} [سورة البقرة: ٢٣١].

قال القاضي البيضاوي في تفسيره: {وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ}: القرآنُ والسنة، أفردهما بالذكرِ إظهاراً لشرفهما.

- ووردَ لفظُ (الكتاب) في الآيةِ الثالثةِ من سورةِ آلِ عمران: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} وواضحٌ أن معناهُ القرآن، الذي يصدِّقُ الكتبَ السماويَّةَ السابقة، بما أخبرتْ به وبشَّرت.

- وكذا معناهُ في الآيةِ السابعةِ من السورةِ نفسها، في الموضعين: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}.

أي: هو الذي أنزلَ عليكَ هذا القرآنَ العظيم، فيه آياتٌ مُحْكَماتٌ واضحاتٌ يَعرِفُ معناها الناس، لا اشتباهَ في معناها ودلالتِها، وفي بعضهِ الآخَرِ آياتٌ متشابِهاتٌ غيرُ واضحات.. (الواضح في التفسير).

- وقولهُ سبحانه: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [سورة النساء: ١٠٥].

واضحٌ أن معنى الكتابِ هنا القرآن، وهو كما ذكرَهُ الطبريُّ وغيره.

قال ابنُ الجوزي في تفسيرِهِ (زاد المسير): والكتاب: القرآن، والحقّ: الحكمُ بالعدل. {لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ}: أي لتقضيَ بينهم.

وفي قوله: {بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} قولان:

أحدهما: أنه الذي علَّمَه، والذي علَّمَه أنْ لا يَقبلَ دعوَى أحدٍ على أحدٍ إلا ببرهان.

والثاني: أنه ما يؤدِّي إليه اجتهاده. ذكره الماوردي. اهـ.

- وكذا في الآيةِ (١١٣) من السورةِ نفسها: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ}.

أي: ومن فضلِ الله عليكَ يا محمد، مع سائرِ ما تفضَّلَ به عليكَ من نعمه، أنه أنزلَ عليكَ الكتاب، وهو القرآنُ الذي فيه بيانُ كلِّ شيء، وهدًى وموعظة... (تفسير الطبري).

- ومثلهُ قولهُ سبحانه: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} [سورة النساء: ١٢٧].

قالت عائشةُ رضيَ الله عنها، كما في صحيح مسلم (٣٠١٨): "والذي ذكرَ اللهُ تعالى أنه {يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ}: الآيةُ الأولَى التي قال اللهُ فيها: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوْا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ}" [سورة النساء: ٣].

- وقولهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ} [سورة النساء: ١٣٦].
والكتابُ المنزَلُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن.

- وكذا في الآيةِ (١٤٠) من السورةِ نفسها: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ}.

قال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ الله: والذي أُحيلَ عليه في هذه الآيةِ من النهي في ذلك، هو قولهُ تعالى في سورةِ الأنعام، وهي مكية: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنعام: ٦٨].

- وقولهُ سبحانه: {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} [سورة المائدة: ٤٨].

قال الفخرُ الرازيُّ في تفسيرِهِ الكبير: هذا خطابٌ مع محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فقوله: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقّ} أي: القرآن، وقوله: {مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ} أي: كلُّ كتابٍ نزلَ من السماءِ سوى القرآن. اهـ.

- وقولُ الله تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [سورة الأنعام: ٧].

يعني بالكتابِ هنا القرآنَ الكريم.

قال ابنُ جريرٍ الطبري في معناه: لو أنزلتُ عليكَ يا محمدُ الوحيَ الذي أنزلتهُ عليكَ مع رسولي في قرطاسٍ يعاينونَهُ ويمسُّونَهُ بأيديهم، وينظرون إليه ويقرؤونَهُ منه، معلَّقًا بين السماءِ والأرض، بحقيقةِ ما تدعوهم إليه، وصحَّةِ ما تأتيهم به من توحيدي وتنزيلي، لقال الذين يَعدِلُون بي غيري فيشركون في توحيدِي سواي: {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحرٌ سحرتَ به أعيننا، ليستْ له حقيقةٌ ولا صحَّة. اهـ.

وقال الفخرُ الرازيُّ في تفسيرِهِ الكبير: المرادُ من قوله: {فِي قِرْطَاسٍ} أنه لو نزلَ الكتابُ جملةً واحدةً في صحيفةٍ واحدة، فرأوهُ ولمسوهُ وشاهدوهُ عياناً، لطعنوا فيه وقالوا: إنه سحر!

- والآيةُ (٩٢) من سورةِ الأنعام: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}.

أي: وهذا القرآنُ أنزلناهُ من عندنا لا ريبَ فيه، كثيرُ الفائدةِ والنَّفع، كلُّهُ حقٌّ وهداية، وتوجيهٌ وحكمة، مصدِّقٌ للكتبِ السَّماويَّةِ السابقة، ومنها التَّوراة... (الواضح في التفسير).

- قولهُ سبحانه: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} [سورة الأنعام: ١١٤].

قال العلامةُ الشوكاني في (فتح القدير): أي كيف أطلبُ حكَماً غيرَ الله، وهو الذي أنزلَ عليكم القرآنَ مفصَّلاً مبيَّناً واضحاً، مستوفياً لكلِّ قضيةٍ على التفصيل؟

- وبمعنى القرآنِ أيضًا في قولهِ تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الأنعام: ١٥٥].

قال ابنُ كثير: فيه الدعوةُ إلى اتباعِ القرآن، ووصفهُ بالبركةِ لمن اتبعَهُ وعملَ به في الدنيا والآخرة.

- وبمعناهُ أيضًا ما وردَ من لفظِ (الكتاب) في الآيةِ الثانيةِ من سورةِ الأعراف: {كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}.

أي: هو القرآنُ الذي أنزلَهُ اللهُ عليكَ مِن عندِه، فلا يكنْ عندكَ شكٌّ في ذلك، أو لا يكنْ في صدرِكَ ضيقٌ مِن تبليغهِ، ولا حرجٌ في الإنذارِ به مخافةَ أن يكذِّبوك، ولِيَكونَ تذكيراً للمؤمنين، ينتفعونَ به، ويَهتدونَ بهديه. (الواضح في التفسير).

- وأيضًا قولهُ سبحانه: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف: ٥٢].

أي: لقد أنزلنا إليهم هذا القرآنَ مفصَّلاً مبيَّنًا فيه الحقُّ من الباطل... (تفسير الطبري).

- وبمعنى القرآنِ أيضًا قولهُ سبحانه: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [سورة الأعراف: ١٩٦].

فهو على لسانِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، كما في مصادرِ التفسير.

- وبمعناهُ أيضًا في أولِ سورةِ يونس: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}.

وقد أوردَ الاختلافَ فيه الطبريُّ وابنُ كثيرٍ، واختارا معناهُ القرآن، حتى قال الأخيرُ فيمن قال إن معناهُ الكتبُ التي كانت قبل القرآن: هذا القولُ لا أعرفُ وجههُ ولا معناه.

- وباللفظِ نفسهِ الآيةُ الثانيةُ من سورةِ لقمان: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}.

ومعنى الحكيم: الناطقُ بالحكمة.

- وقولهُ سبحانه: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة يونس: ٣٧].

قال القرطبيُّ رحمَهُ الله: الكتابُ اسمُ جنس، وقيل: أرادَ بتفصيلِ الكتابِ ما بُيِّنَ في القرآنِ من الأحكام.

وقال الطبري: وتبيانُ الكتابِ الذي كتبَهُ الله على أمةِ محمدٍ صلى الله عليه وآلهِ وسلم، وفرائضهُ التي فرضها عليهم في السابقِ من علمه.

وقال ابنُ كثير: وبيانُ الأحكامِ والحلالِ والحرامِ بيانًا شافيًا كافيًا حقًّا لا مريةَ فيه من الله ربِّ العالمين.

- والآيةُ الأولى من سورةِ هود: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}.

قال الطبريُّ ما ملخصه: هذا الكتابُ الذي أنزلَهُ الله على نبيِّهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن، أحكمَ الله آياتهِ من الدَّخلِ والخللِ والباطل، ثم فصَّلها بالأمرِ والنهي.

- وقولهُ سبحانهُ في الآيةِ الأولَى من سورةِ يوسف: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}.

أي: هذهِ آياتُ القرآنِ البيِّنِ في أحكامِه، الظاهرِ أمرُه، في مصدرِه، وإعجازه، ومعناه. (الواضح في التفسير).

وقال ابنُ عاشور رحمَهُ الله في تفسيره (التحرير والتنوير): وُصِفَ الكتابُ هنا بـ {الْمُبِينِ}، ووُصِفَ به في طالعةِ سورةِ يونس بـ {الْحَكِيمِ} لأن ذكرَ وصفِ إبانتهِ هنا أنسب، إذ كانت القصَّةُ التي تضمَّنتها هذه السُّورة مفصِّلةً مبيِّنةً لأهمِّ مَا جرَى في مدَّةِ يوسفَ عليه السَّلامُ

بمصر. فقصَّةُ يوسفَ عليه السّلامُ لم تكنْ معروفةً للعربِ قبل نزولِ القرآنِ إجمالاً ولا تفصيلاً، بخلافِ قصصِ الأنبياء: هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب – عليهم السَّلامُ أجمعين –، إذ كانت معروفةً لديهم إجمالاً، فلذلك كان القرآنُ مبيّناً إيّاها ومفصّلاً.

ونزولها قبل اختلاطِ النبيّ صلى الله عليه وسلم باليهودِ في المدينةِ معجزةٌ عظيمةٌ من إعلامِ الله تعالى إيّاهُ بعلومِ الأوَّلين..

- وقولهُ تعالى في الآيةِ الأولى من سورةِ الرعد: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ}.

تفسيرها: هذهِ آياتُ القرآنِ الكريم، وما أنزلَهُ اللهُ إليكَ أيُّها النبيُّ من الوحي في هذا القرآنِ هو الحقُّ الذي لا يتطرَّقُ إليهِ الشَّكّ. (الواضح في التفسير).

وهذا الذي اخترتهُ من معنَى الكتابِ هو أحدُ الأقوال، فقد ذكرَ بعضهم أنه بمعنَى التوراةِ والإنجيل، وقال بعضهم إنه بمعنَى السورة.

قال ابنُ كثيرٍ في اختيارهِ بمعنَى القرآن: هذه آياتُ الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراةُ والإنجيل، قالَهُ مجاهدٌ وقَتادة، وفيه نظر، بل هو بعيد. اهـ.

- وكذا هو في الآيةِ الأولى من سورةِ إبراهيم: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}.

قال مكي بن أبي طالب في تفسيره (الهداية إلى بلوغ النهاية): هذا الكتابُ أنزلناهُ إليكَ يا محمد، لتُخرجَ به الناسَ من الضلالِ إلى الهدى. فالكفرُ بمنزلةِ الظلام، والإيمانُ كالنور. وهذا

يدلُّ على إرسالِ محمَّدٍ عليه السلامُ إلى جميعِ الخلق؛ لقوله: {لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ}، ولم يقل: لتُخرِجَ بني إسماعيل.

وقال صاحبُ الظلالِ رحمَهُ الله: لتُخرِجَ هذه البشريةَ من الظلمات. ظلماتِ الوهمِ والخرافة، وظلماتِ الأوضاعِ والتقاليد، وظلماتِ الحيرةِ في تيهِ الأربابِ المتفرقة، وفي اضطرابِ التصوراتِ والقيمِ والموازين.. لتُخرِجَ البشريةَ من هذه الظلماتِ كلِّها إلى النور، النورِ الذي يكشفُ هذه الظلمات، يكشفها في عالمِ الضميرِ وفي دنيا التفكير، ثم يكشفها في واقعِ الحياةِ والقيمِ والأوضاعِ والتقاليد.

- ومثلها الآيةُ الأولى من سورةِ الحِجر: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ}.

أي: تلكَ الآياتُ العظيمةُ آياتُ الكتابِ الكاملِ الجليل، وقرآنٍ عظيمِ الشَّأن، واضحٍ بيّن، فيهِ أمرُ اللهِ وهَديُه، وحُكمهُ وعدلُه. (الواضح في التفسير).

وقد اختلفَ المفسِّرون في دلالةِ لفظِ (الكتاب) هنا، بين أن يكونَ دالاً على القرآن، أو على ما نزلَ قبله.

قال ابنُ الجوزي في (زاد المسير): قولهُ تعالى: {وَقُرْآنٍ مُبِينٍ} فيه قولان:

أحدهما: أن القرآنَ هو الكتاب، جُمِعَ له بين الاسمين.

والثاني: أن الكتاب: هو التوراةُ والإنجيل، والقرآن: كتابُنا.

- وقولهُ سبحانهُ وتعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة النحل: ٦٤].

فسَّرَهُ القرطبيُّ في تفسيرِهِ (الجامع لأحكام القرآن) بما ملخصه: {وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ} القرآنَ {إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ} من الدينِ والأحكام، فتقومَ الحجَّةُ عليهم ببيانك، {وَهُدًى} أي: رشدًا ورحمةً للمؤمنين.

- ومثلهُ في الآيةِ (٨٩) من السورةِ نفسها: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}.

أي: وقد أنزلنا عليكَ القرآنَ بيانًا لكلِّ شيءٍ نافعٍ يُحتاجُ إليه. والمقصود: الكلِّيات، فقد جمعَ القرآنُ جميعَ الأحكامِ جمعًا كلِّيًا في الغالب، وجزئيًّا في المهمّ.

وفيه هدايةٌ للقلوبِ من الضَّلال، ورحمةٌ بالنَّاسِ في دعوتِهِ وأحكامِه، وبشارةٌ للمسلمين بالفوزِ والفلاحِ وقد آمنوا به. (الواضح في التفسير).

- وقولهُ تعالَى في الآيةِ الأولَى من سورةِ الكهف: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا}.

قال الإمامُ البغوي في تفسيره: أثنَى الله على نفسهِ بإنعامهِ على خلقه، وخصَّ رسولَهُ صلى الله عليه وسلم بالذكر؛ لأن إنزالَ القرآنِ عليه كان نعمةً عليه على الخصوص، وعلى سائرِ الناسِ على العموم. اهـ.

وقال أبو حيّان الأندلسي في تفسيرِهِ (البحر المحيط) في قولهِ تعالى: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا}: المعنَى أنه في غايةِ الاستقامة، لا تناقضَ ولا اختلافَ في معانيه، لا حوشيةَ ولا عيَّ في تراكيبهِ ومبانيه.

- وقولهُ تعالى: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ} [سورة الكهف: ٢٧].

قال الطبري: يقولُ تعالى ذكرهُ لنبيّهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم: واتَّبعْ يا محمدُ ما أُنزِلَ إليكَ من كتابِ ربّكَ هذا، ولا تتركنَّ تلاوته، واتّباعَ ما فيه من أمرِ الله ونهيه، والعملَ بحلاله وحرامه، فتكونَ من الهالكين..

- وبمعناهُ في الآيةِ (١٦) من سورةِ مريم: {وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً}.

قال الطبريُّ في تفسيره: يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيّهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: واذكرْ يا محمَّدُ في كتابِ الله الذي أنزلَهُ عليكَ بالحقِّ مريمَ ابنةَ عمران، حين اعتزلتْ من أهلها، وانفردتْ عنهم.

- ومثلهُ في الآيةِ (٤١) من السورةِ نفسها: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}.

قال القرطبيُّ في تفسيره: المعنَى: واذكرْ في الكتابِ الذي أُنزِلَ عليك – وهو القرآنُ – قصَّةَ إبراهيمَ وخبره.

- وكذلك الآيةُ (٥١) من السورةِ نفسها: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}.

أي: واذكرْ في القرآنِ كذلكَ خبرَ موسَى بنِ عِمران، الذي اصطفاهُ اللهُ من بين النَّاسِ لحَملِ رسالتِه، فكانَ رسولاً، نبيًّا من أُولي العزم. (الواضح في التفسير).

- ومثلهُ الآيةُ (٥٤) من السورةِ نفسها: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}.

قال ابنُ كثير: هذا ثناءٌ من الله تعالَى على إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهما السلام، وهو والدُ عربِ الحجازِ كلِّهم، بأنه كان صادقَ الوعد. قال ابنُ جريج: لم يَعِدْ ربَّهُ عِدَةً إلا أنجزها، يعني: ما التزمَ عبادةً قطُّ بنذرٍ إلا قامَ بها ووفَّاها حقَّها.

- وكذا قولهُ سبحانهُ في الآيةِ (٥٦) من السورةِ نفسها: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}.

يقولُ تعالى ذكره: واذكرْ يا محمَّدُ في كتابنا هذا إدريسَ {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً}: لا يقولُ الكذب، {نَبِيًّا}: نوحي إليه من أمرِنا ما نشاء. (الطبري).

- وقولهُ تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الأنبياء: ١٠].

قال صاحبُ الظلالِ رحمَهُ الله: ... إنما أُرسِلَ إليهم بكتابٍ يشرِّفُهم لأنه بلغتِهم، ويقوِّمُ حياتهم، ويخلقُ منهم أمةً ذاتَ سيادةٍ في الأرض، وذكرٍ في الناس. وهو مفتوحٌ للعقولِ تتدبَّره، وترتفعُ به في سلَّمِ البشرية.

- والآيةُ الثانيةُ من سورةِ الشعراء: {تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ}.

قال الفخرُ الرازيُّ في تفسيرِهِ الكبير: لا شبهةَ في أن المرادَ بالكتابِ هو القرآن، والمبينُ وإن كان في الحقيقةِ هو المتكلِّم، فقد يُضافُ إلى الكلام، من حيثُ يتبيَّنُ به عند النظرِ فيه.

- والآيةُ الأولَى من سورةِ النمل: {تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ}.

أي: هذهِ آياتُ القرآنِ الكريم، الكتابِ البيّنِ الواضحِ في أحكامهِ وأخبارِه. (الواضح في التفسير).

وفي تفصيلٍ مفيدٍ يقولُ القرطبيُّ في تفسيره: هذه السورةُ آياتُ القرآن، وآياتُ كتابٍ مبين. وذكرَ القرآنَ بلفظ المعرفة، وقال: {وَكِتَابٍ مُبِينٍ} بلفظِ النكرة، وهما في معنَى المعرفة، كما تقول: فلانٌ رجلٌ عاقل، وفلانٌ الرجلُ العاقل. والكتابُ هو القرآن، فجمعَ له بين الصفتين: بأنه قرآن، وأنه كتاب؛ لأنه ما يَظهرُ بالكتابة، ويَظهرُ بالقراءة.

- وبالمعنَى والتفسيرِ نفسهِ الآيةُ الثانيةُ من سورةِ القصص: {تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ}.

- وفي الآيةِ (٨٦) من السورةِ نفسها قولهُ تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}.

أي: ما علمتَ أننا نُرسلُكَ إلى الخلقِ ونُنزِّلُ عليكَ القرآنَ {إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} قال الكسائي: هو استثناءٌ منقطعٌ بمعنَى لكنْ. (تفسير القرطبي).

- وقولهُ تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} [سورة العنكبوت: ٤٥].

يقول تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: {اتْلُ} يعني اقرأ {ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} يعني ما أُنزِلَ إليكَ مِن هذا القرآن. (الطبري).

- والآيةُ (٤٧) من السورةِ نفسها: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}.

قال النسفي في (مدارك التنزيل): {وَكَذٰلِكَ}: ومثلُ ذلك الإنزالِ {أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ} أي: أنزلناهُ مصدِّقاً لسائرِ الكتبِ السماوية، أو كما أنزلنا الكتبَ إلى من قبلِكَ أنزلنا إليكَ الكتاب.

- والآيةُ (٥١) من السورةِ نفسها: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}.

يعني: أوَلم يكفِهم من الآياتِ القرآنُ يُتلَى عليهم؟ (تفسير البغوي).

- وقولُ الله تعالَى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة السجدة: ٢].

يقولُ تعالَى ذكره: تنزيلُ الكتابِ الذي نُزِّلَ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، لا شكَّ فيه {مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} يقول: من ربِّ الثقلين: الجنِّ والإنس. (الطبري).

- وقولهُ عزَّ وجلَّ: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [سورة الأحزاب: ٦].

المرادُ بالكتابِ في الموضعِ الأولِ من الآية: القرآنُ الكريم، وفي الموضعِ الثاني: القرآن، أو اللوحُ المحفوظ. والأخيرُ أقرب.

كما وردَ أن المقصودَ بكتابِ الله في الموضعِ الأول: حكمُ الله.

قال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ الله: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحامِ بعضُهم أولَى ببعض، حكمٌ من الله مقدَّرٌ مكتوبٌ في الكتابِ الأول، الذي لا يبدَّلُ ولا يغيَّر، قالَهُ مجاهدٌ وغيرُ واحد، وإنْ كان تعالى قد شرعَ خلافَهُ في وقت، لما له في ذلك من الحكمةِ البالغة، وهو يعلمُ أنه سينسخهُ إلى ما هو جارٍ في قدَرِهِ الأزليّ وقضائهِ القدريّ الشرعيّ. والله أعلم. اهـ.

يعني رحمهُ أن الآيةَ ناسخةٌ لِما كانَ معمولاً بهِ مِن قَبل، مِن التَّوارثِ بالهجرةِ والإيمان.

قالَ ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: آخَى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بينَ أصحابِه، ووَرِثَ بعضُهم مِن بعض، حتَّى نزلتْ: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ} فتركوا ذلك، وتوارَثوا بالنَّسَب.

وهذا الجزءُ من الآيةِ موجودٌ في الآيةِ الأخيرة (٧٥) من سورةِ الأنفال، فهي بمعناها.

- والآيةُ (٢٩) من سورةِ فاطر: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ}.

قال الطبريُّ في تفسيرِ أولِ الآية: إن الذين يقرؤون كتابَ الله الذي أنزلَهُ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

وقال ابنُ كثير: يخبرُ تعالى عن عبادهِ المؤمنين الذين يتلون كتابَهُ ويؤمنون به، ويعملون بما فيه، من إقامِ الصلاة، والإنفاقِ مما رزقَهم الله تعالى في الأوقاتِ المشروعةِ ليلاً ونهاراً، سرًّا وعلانيةً {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} أي: يرجون ثوابًا عند الله لا بدَّ من حصوله.

- والآيةُ (٣١) من السورةِ نفسها: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}.

تفسيرها: والذي أوحينا إليكَ مِن القرآنِ أيُّها الرسولُ هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، المصدِّقُ للكتبِ السَّماويَّةِ السَّابقة. (الواضح في التفسير).

- والآيةُ التاليةُ لها: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}.

قال ابنُ كثير: يقولُ تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتابِ العظيم، المصدِّقِ لما بين يديهِ من الكتب، الذين اصطفَينا مِن عبادنا، وهم هذه الأمَّة. ثم قسمهم إلى ثلاثةِ أنواع:

فقال تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} وهو المفرِّطُ في فعلِ بعضِ الواجبات، المرتكبُ لبعضِ المحرمات.

{وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ} وهو المؤدِّي للواجبات، التاركُ للمحرَّمات، وقد يتركُ بعضَ المستحبَّات، ويفعلُ بعضَ المكروهات.

{وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} وهو الفاعلُ للواجباتِ والمستحبَّات، التاركُ للمحرَّماتِ والمكروهاتِ وبعضِ المباحات.

- وبمعنَى القرآنِ الكريمِ أيضًا قولهُ تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [سورة ص: ٢٩].

أي: هذا كتابُ اللهِ للنَّاس، كثيرُ الخيرِ والمنفعةِ لهم، في أمورِ دينِهم ودنياهُم، ليَتفكّروا في آياتهِ ويتفهَّموا حِكمَها وأسرارَها، وليتَّعِظَ بها أصحابُ العقولِ النيّرة. (الواضح في التفسير).

قال ابنُ عاشور رحمهُ الله في تفسيره: والتدبر: التفكرُ والتأمُّلُ الذي يبلغُ به صاحبهُ معرفةَ المرادِ من المعاني، وإنما يكونُ ذلك في كلامٍ قليلِ اللفظِ كثيرِ المعاني التي أودِعَتْ فيه، بحيث كلما ازدادَ المتدبِّرُ تدبُّراً انكشفتْ له معانٍ لم تكنْ باديةً له بادىءَ النظر.

- والآيةُ الأولَى من سورةِ الزمر: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.

وباللفظِ نفسهِ الآيةُ الثانيةُ من سورةِ الجاثية، وسورةِ الأحقاف.

يقولُ تعالَى ذكره: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ} الذي نزَّلناهُ عليكَ يا محمَّدُ {مِنَ اللهِ العَزِيزِ} في انتقامهِ من أعدائه، {الحَكِيمِ} في تدبيرِهِ خلقَه، لا من غيره، فلا تكونَنَّ في شكٍّ من ذلك. (الطبري، سورة الزمر).

- والآيةُ التاليةُ لها: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}.

أي: إنَّا أنزلنا إليكَ هذا القرآنَ – أيُّها الرَّسولُ– بالحقِّ والصَّواب، لا يشوبهُ باطلٌ أو هَزْل، فكلُّ ما فيهِ موجِبٌ للإيمانِ بهِ وقبولِه. (الواضح في التفسير).

- والآيةُ (٢٣) من السورةِ نفسها: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}.

قال الشوكانيُّ في تفسيرِهِ ما ملخصه: {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ} يعني: القرآن، وسمَّاهُ حديثاً لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يحدِّثُ به قومه، ويُخبرهم بما يَنزلُ عليه منه. {مُّتَشَٰبِهاً} أي: يُشبهُ بعضهُ بعضاً في الحُسن، والأحكام، وصحَّةِ المعاني، وقوَّةِ المباني،

وبلوغهِ إلى أعلَى درجاتِ البلاغة. و {مَّثَانِيَ} أي: تثنَّى فيه القصص، وتتكرَّرُ فيه المواعظ، والأحكام. وقيل: يثنَّى في التلاوة، فلا يملُّ سامعه، ولا يسأمُ قارئه.

- والآيةُ (٤١) من السورةِ نفسها: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ}.

{إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ}: القرآنَ {لِلنَّاسِ} لأجلِهم، ولأجلِ حاجتهم إليه، ليبشَّروا ويُنذَروا، فتقوَى دواعيهم إلى اختيارِ الطاعةِ على المعصية. (تفسير النسفي).

- والآيةُ الثانية من سورةِ غافر: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

أي: تنزيلُ هذا الكتاب، وهو القرآن، من اللهِ ذي العزَّةِ والعلم، فلا يُرامُ جنابه، ولا يَخفَى عليه الذرُّ وإنْ تكاثفَ حجابه. (ابن كثير).

- والآية (٧٠) من السورةِ نفسها: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}.

أي: الذينَ كذَّبوا بالقرآنِ العظيم، وبسائرِ الكتبِ السَّماويَّةِ التي أنزلناها على رسلِنا، فسوفَ يعلمونَ ما يَحِلُّ بهم مِن العذاب. (الواضح).

- والآيةُ الثالثةُ من سورةِ فصِّلت: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

تفسيرها: كتابٌ بُيِّنتْ أحكامُه، وفُصِّلَ حلالهُ وحرامُه، وأمرهُ ونهيُه، ووعدهُ ووعيدُه، قرآناً بلسانٍ عربيٍّ مبين، يَعرِفُ معانيَهُ الرَّاسخونَ في العِلم، المتمكِّنونَ منه. (الواضح).

- قولهُ تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} [سورة فصّلت: ٤١].

قال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ الله: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ} قال الضحاكُ والسدّي وقتادة: وهو القرآن، {وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ} أي: منيعُ الجناب، لا يُرامُ أن يأتيَ أحدٌ بمثله.

- وقولهُ سبحانه: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة الشورى: ٥٢].

يوردُ المفسّرونَ (الكتابَ) في الآيةِ هكذا، دون تفسير، وكأنهم يعنون به جنسَ الكتابِ السماوي، أو القرآنَ الكريم، كما قال ابنُ الجوزي في تفسيره: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ}: وذلك أنه عليه الصلاةُ والسلامُ لم يكنْ يَعرفُ القرآنَ قبل الوحي. اهـ.

ويكونُ تفسيرُ الآيةِ الكريمة: وكما أوحينا إلى الرسل، أوحينا إليكَ هذا القرآنَ العظيم، الذي هو حياةٌ للقلوب، ما كنتَ تعرفُ مِن قبلُ ما هو القرآن، ولا الإيمانُ بمعالمِهِ التي بيَّنَها اللهُ لكَ بالوحي، ولكن جعلنا القرآنَ نورًا وحقًّا نَهدي بهِ مَن نشاءُ هدايتَهُ مِن عبادِنا، وإنَّكَ أيُّها النبيُّ تَهدي بذلكَ النُّورِ إلى طريقِ اللهِ المستقيم. (الواضح في التفسير).

- والآيةُ الثانيةُ من سورةِ الزخرف: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}.

وبلفظهِ الآيةُ الثانيةُ من سورةِ الدخان.

قسَمٌ من الله تعالى، أقسمَ بهذا الكتابِ الذي أنزلَهُ على نبيّهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فقال: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} لمن تدبَّرَهُ وفكَّرَ في عِبَرِهِ وعظاته، هُداهُ ورُشده، وأدلَّتهِ على

حقِّيته، وأنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، لا اختلاقٌ من محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، ولا افتراءٌ من أحد. (الطبري، سورة الزخرف).

- وفي الآيةِ (١٢) من سورةِ الأحقافِ قولُ ربّنا تباركَ وتعالَى: {وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ}.

قال ابنُ كثيرٍ ما مختصره: يعني: القرآنُ مصدِّقٌ لما قبلَهُ من الكتب، لساناً فصيحًا بيّنًا واضحًا، مشتملٌ على النذارةِ للكافرين، والبشارةِ للمؤمنين.

- وبمعنَى القرآنِ أيضًا قولهُ عزَّ وجلَّ على لسانِ الجنّ: {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة الأحقاف: ٣٠].

تفسيرها: قالوا لهم: يا قومَنا، إنَّا سمعنا كتابًا جليلَ القَدْرِ أُنزِلَ مِن بعدِ موسَى، الذي أُوتِيَ التَّوراةَ – وكانتْ عُمدةَ عيسَى أيضًا عليهِ السَّلامُ – مصدِّقًا لِما أُنزِلَ مِن الكتبِ الإلهيَّةِ السَّابقة، يَهدي إلى الحقِّ في الاعتقاد، وإلى نهجٍ صادقٍ مستقيمٍ في الدِّينِ كلِّه. (الواضح).

- قولهُ تعالى: {وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ} [سورة الطور: ٢].

المقصودُ القرآنُ الكريم، أو الكتبُ السَّماويَّة. وقيلَ غيرُ ذلك.

قال الفخرُ الرازيُّ في تفسيره: وأما (الكتاب) ففيه أيضاً وجوه:

أحدها: كتابُ موسى عليه السلام.

ثانيها: الكتابُ الذي في السماء.

ثالثها: صحائفُ أعمالِ الخلق.

رابعها: القرآن. اهـ.

زاد في (روح المعاني): الإنجيل، الزبور. وكأنه اختارَ القرآنَ أو التوراة.

وزادَ البيضاوي على هذا كله.

وفي البحرِ المحيط: لا ينبغي أن يُحمَلَ شيءٌ منها على التعيين، إنما تورَدُ على الاحتمال.

واختارَ القرطبيُّ معنَى القرآنِ له، فقال: {وَكِتَابٍ مُّسْطُورٍ} أي: مكتوب، يعني القرآن، يقرؤهُ المؤمنون من المصاحف، ويقرؤهُ الملائكةُ من اللوحِ المحفوظ.

- وقولهُ جلَّ شأنه: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سورة الجمعة: ٢].

قال القرطبيُّ وغيره، في بيانِ موضعِ الشاهد: {وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ}: يعني القرآن، {وَٱلْحِكْمَةَ}: السنَّة.

قال صاحبُ (الظلال) رحمَهُ الله: والمنَّةُ ظاهرةٌ في اختيارِ الله للأميين ليجعلَهم أهلَ الكتابِ المبين، وليرسلَ فيهم رسولاً منهم، يرتفعون باختيارهِ منهم إلى مقامٍ كريم، ويُخرجَهم من أمِّيتهم أو من أمميتِهم بتلاوةِ آياتِ الله عليهم، وتغييرِ ما بهم، وتمييزهم على العالمين..

الكتاب

بمعنى المكتوب أو المفروض

و "الكتاب" يأتي بمعنى "**المكتوب**"، أو "**المفروض**" في كتابِ الله تعالى.

- قولهُ تعالى: {وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ} [سورة البقرة: ٢٣٥].

قال علماءُ التفسير، كما أوردهُ لهم ابنُ كثير: حتى تنقضيَ العِدَّة.

وتفسيرُ مفرداتِ الآيةِ كما ذكرهُ الآلوسيُّ رحمهُ الله: أي: ينتهي ما كتبَ وفرضَ من العِدَّة.

ويعني أن الكتابَ هنا بمعنى "المكتوب" أو "المفروض"، وهو كما في قولهِ سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٨٣]. فـ "كُتِبَ" هنا بمعنى فُرِض.

- وكذلك الصلاة، فهي كتاب، أي فَرض، كما في قولهِ عزَّ وجلَّ: {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً} [سورة النساء: ١٠٣].

أي: إنَّ الصَّلاةَ مفروضةٌ على المؤمنينَ ومحدودةُ الأوقات، لا يجوزُ إخراجُها عن أوقاتها.

- ومثلهُ قولُ العليمِ الحكيم: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ} [سورة النساء: ٢٤]. أي: هذا التحريمُ كتبَهُ اللهُ عليكم (أي: فرَضَهُ) فالتَزِموا شَرْعَه.

وتفسيرُ الآية، كما في (الواضح في التفسير) للكاتب: ويَحرُمُ عليكم الزَّواجُ بالنِّساءِ ذواتِ الأزواج، إلاّ ما ملكتُموهنَّ بالسَّبي، فيجوزُ لكم وطؤهنَّ ولو كان لهنَّ أزواجٌ في دارِ الحرب، بعدَ استبرائهنّ، وهو انقضاءُ عِدَّتهنّ، لأنَّ بالسَّبي يَرتفعُ النكاحُ بينهنَّ وبين أزواجِهنَّ السابقين.

- وهذا قريبٌ أو مطابقٌ للمعنَى المرادِ من قولهِ تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً} [سورة آل عمران: ١٤٥]، أي: لا تموتُ نفسٌ إلا إذا قدَّرَ الله لها ذلك، أجَلاً مرسومًا، في الوقتِ المحدَّدِ لها، بدونِ تقديمٍ ولا تأخير. فيكون معنى "كتابًا" هنا: "فرْضًا".

الكتاب

بمعنى الحُكم والقضاء

وقريبًا من (المكتوب، أو المفروض) أو بمعناه، أن يردَ لفظُ (الكتابِ) ويُرادُ به "**الحُكم**":

- قولُ ربّنا تبارك وتعالى: {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة الأنفال: ٦٨].

أي: ولولا حُكمٌ منَ اللهِ في اللَّوحِ المحفوظ، بأنْ لا يعذِّبَ قَوماً قبلَ تقديمِ ما يبيّنُ لهم أمراً أو نَهياً، لأصابَكم فيما أخذتُموهُ منَ الفِداءِ منَ الأسرَى عذابٌ كبير. (الواضح).

فـ"كتاب" هنا بمعنى "حُكم"، وهو الأمرُ الذي فرضَه.

- ومثلهُ قولهُ سبحانه: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} [سورة الروم: ٥٦]

أي: قالَ لهم العلماءُ مِن المؤمنين: لقد بقيتُم في قضاءِ اللهِ وحُكمهِ مِن يومِ خَلقِكم في الدُّنيا إلى يومِ البَعث.

- وقولهُ تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة الروم: ٥٦].

قال القاضي البيضاوي: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلإِيمَٰنَ} من الملائكةِ والإنسَ: {لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ}: في علمهِ أو قضائه، أو ما كتبَهُ لكم، أي أوجبه، أو اللوح، أو القرآن.

وقال الإمامُ الطبري: {فِي كِتابِ اللهِ} يقول: فيما كتبَ الله مما سبقَ في علمهِ أنكم تلبثونه.

وتفسيرُ الآيةِ كلِّها: قالَ لهم العلماءُ مِن المؤمنين: لقد بقيتُم في قضاءِ اللهِ وحُكمِهِ مِن يومِ خَلْقِكم في الدُّنيا إلى يومِ البعث، وهذا هو يومُ البعثِ الذي كنتُم تُوعَدونَ بهِ في الدُّنيا، ولكنَّكم كنتُم مقصِّرين في النظرِ والتدبُّر، معاندينَ للرسل، ومصرِّينَ على الكفرِ والتَّكذيب، وما كنتُم مؤمِنينَ بالبعثِ والحسابِ على الأعمال. (الواضح في التفسير).

- الآيةُ الثالثةُ من سورةِ البيِّنة، قولهُ تعالَى: {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} [الآيتان: ٢-٣].

في معنَى الكتابِ هنا اختلافٌ كبير، بسطَ فيه القولَ صاحبُ (روح المعاني).

وقال العلامةُ القرطبيُّ في تفسيره: ... قال بعضُ أهلِ العلم: الصحفُ هي الكتب، فكيف قال في صحف: فيها كُتب؟

فالجواب: أن الكتبَ هنا: بمعنَى الأحكام؛ قال الله عزَّ وجلَّ: {كَتَبَ ٱللَّهُ لأَغْلِبَنَّ} [سورة المجادلة: ٢١] بمعنَى حكم. وقال صلى الله عليه وسلم: "**والله لأقضِينَّ بينكما بكتابِ الله** "، ثم قضَى بالرجم، وليس ذِكرُ الرجمِ مسطوراً في الكتاب، فالمعنَى: لأقضينَّ بينكما بحكمِ الله تعالى.

وقال الشاعر:

وما الولاءُ بالبلاءِ فمِلْتُمُ وما ذاكَ قال اللَّهُ إذ هو يَكْتُبُ

وقيل: الكتبُ القيِّمة: هي القرآن، فجعلَهُ كتباً لأنه يشتملُ على أنواعٍ من البيان. اهـ.

وقال البغوي: {فِيهَا} أي: في الصحف، {كُتُبٌ} يعني الآياتِ والأحكامَ المكتوبةَ فيها، {قَيِّمَةٌ}: عادلةٌ مستقيمةٌ غيرُ ذاتِ عِوَج. اهـ.

وكذا ذكرَ الواحدي في (الوجيز) أن الكتبَ بمعنَى الأحكام.

وقال ابنُ الجوزي في (زاد المسير): {فِيهَا} أي: في الصحف، {كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} أي: عادلةٌ مستقيمةٌ تبيِّنُ الحقَّ من الباطل، وهي الآيات. قال مقاتل: وإنما قيل لها (كتب) لما جمَعتْ من أمورٍ شتَّى. اهـ.

واختارَ النسفي الكتابَ بمعنَى المكتوب، فقال: في الصحفِ مكتوبات، مستقيمة، ناطقةٌ بالحقِّ والعدل.

أما اختيارُ الطبري وموافقةُ ابنِ كثيرٍ له فهو قولهُ: في الصحفِ المطهَّرةِ كتبٌ من الله قيِّمةٌ عادلةٌ مستقيمة، ليس فيها خطأ، لأنها من عندِ الله.

وحديثًا أوَّلَهُ الشيخُ الطاهر بن عاشور في تفسيرِهِ المشهور (التحرير والتنوير) باجتهادٍ من عنده، فقال ما ملخصه: ووصفَ الصحفَ التي يتلوها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأن فيها كتباً، والكتب: جمع كتاب، وهو فِعَال، اسمٌ بمعنَى المكتوب، فمعنَى كونِ الكتبِ كائنةً في الصحف، أن الصحفَ التي يُكتَبُ فيها القرآنُ تشتملُ على القرآن، وهو يشتملُ على ما تضمَّنتهُ كتبُ الرسلِ السابقين، مما هو خالصٌ من التحريفِ والباطل، فالقرآنُ زبدةُ ما في الكتبِ الأُولَى، ومجمعُ ثمرتها، فأُطلِقَ على ثمرةِ الكتبِ اسمُ (كُتب) على وجهِ مجازِ الجزئية. والمرادُ بالكتبِ أجزاءُ القرآن، أو سوَره، فهي بمثابةِ الكتب. اهـ.

واخترتُ ما اختارَهُ بعضُ المفسِّرين، من أن الكتابَ بمعنَى كتب، أي: قضَى وحكَم، ففي كتابِ الله تعالَى قضاؤهُ وأحكامه. ولذلك جاءَ تفسيرُ الآيةِ في (الواضح): في تلكَ الصُّحفِ آياتٌ صادقة، وأحكامٌ عادلةٌ مستقيمة، تَهدي إلى الحقّ.

الكتاب

بمعنى الوثيقة أو الحجة والدليل

ويمكنُ أن يقالَ إن "الكتاب" يأتي بمعنى "**الوثيقة**" أو "**الحجَّة**" و"**الدليل**"، وإن كان اعتبارهُ يعودُ إلى "جنس الكتاب" السماوي، أي: يكونُ من عند الله:

- كما في قولِ ربّنا تبارك وتعالى ردًّا على الكفارِ الذين قالوا إن الملائكةَ بناتُ الله – تعالى الله –: {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الصافات: ١٥٧].

أي: فأتُوا بحجَّتكم تكونُ دليلاً على ما تدَّعون، إذا كنتُم صادقين فيما تقولون، فإنَّهُ لا يعلمُ خَلقَ الملائكةِ إلاّ الله (الواضح في التفسير).

وقد فسَّرهُ قتادةُ بقوله: "عذركم"، كما أوردهُ له الطبري في تفسيره، والسيوطي في "الدرِّ المنثور" عند تفسيرِ الآية. والعذر: الحجَّة.

وقال الشوكاني أي: فأتوا بحجَّتكم الواضحةِ على هذا إن كنتم صادقين فيما تقولونه، أو فأتوا بالكتابِ الذي ينطقُ لكم بالحجَّةِ ويشتملُ عليها.

الكتاب

بمعنى الأجل

و"الكتاب" يأتي بمعنى "**الأجل**" نفسه، وإن جاءَ مقرونًا به في آياتٍ سابقة:

- كما في قولهِ عزَّ وجلَّ: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ} [سورة الحجر:٤].

قال ابنُ الجوزي رحمَهُ الله في (زاد المسير): {إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ}: أي: أجَلٌ مؤقَّتٌ لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ عنه. اهـ.

وتفسيرها: ما أوقَعنا العذابَ بأهلِ قريةٍ أو مدينةٍ منَ المدنِ إلاّ بعدَ إنذارِهم، وانتهاءِ المدَّةِ التي ضُرِبَتْ لهم، لا يُنسَى أجَلُهم ولا يُغْفَلُ عنه، بل هو معلومٌ مقدَّرٌ عند اللهِ في اللَّوحِ المحفوظ. (الواضح في التفسير).

الكتاب

بمعنى صحف الأعمال

ويُطلَقُ "الكتاب" ويُرادُ به "**صحف الأعمال**" التي فيها أعمالُ العباد، فهي سجلُّ أعمالهم:

- وهذ وردَ في أكثرَ من آية، منها قولُ الربِّ سبحانه: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [سورة الإسراء: ١٣- ١٤].

فالمرادُ بالكتابِ في الآيتين: صحيفةُ الأعمال، كما ذكرَهُ المفسِّرون.

وتفسيرُ الآيةِ الأولَى: وكلُّ إنسانٍ مُلزَمٌ بما صدرَ منه باختيارِه، مِن خيرٍ وشرّ، على حسَبِ ما قُدِّرَ له، فيُحاسَبُ على ما قدَّمَ ويُجازَى عليهِ يومَ القيامَة، فيُخرَجُ لهُ كتابٌ يَراهُ مفتوحًا، فيهِ جميعُ أعمالِهِ طوالَ حياتهِ في الدُّنيا، صغيرُها وكبيرُها، ما أسَرَّ منها وما أعلَن.

وتفسيرُ الآيةِ الأخرى: هذهِ هي صحائفُ أعمالِكَ أيُّها الإنسان، قد دُوِّنَتْ في هذا الكتابِ كما وُعِدْتَ به، لم يَشُذَّ عنها شيء، ما نَسِيتَ وما لم تَنسَ، وليسَ فيها شيءٌ خارجَ الحساب، فكلُّها تَخصُّك، اقرأها كلمةً كلمة، وستَرَى أنَّكَ لم تُظلَمْ مقدارَ ذرَّة، ولا تحتاجُ إلى شاهدٍ يَشهَدُ لكَ أو عليك، فكفَى بكَ حسيبًا على عملِك، وأنتَ صاحبُه. (الواضح في التفسير).

- وكذا قولهُ سبحانه: {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [سورة الإسراء: ٧١].

قال الإمامُ الطبريُّ رحمَهُ الله: فمن بُعِثَ متَّقيًا للهِ جُعِلَ كتابهُ بيمينه، فقرأهُ واستبشر، ولم يُظلَم فتيلاً.

- وبمعناهُ أيضًا قولهُ تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [سورة الكهف: ٤٩].

تفسيرها: ووُضِعَتْ صحائفُ الأعمالِ في أيدي أصحابِها، وفيها كلُّ ما قالوهُ وعملوهُ في الدُّنيا، كبيرًا كانَ أو صغيرًا، وترَى الكفرةَ المجرمينَ خائفينَ مذعورينَ ممّا في كتابِهم منَ الجرائمِ والمنكَراتِ والذُّنوبِ العِظام، وهم يقولونَ متعجِّبينَ ومتحَسِّرين: يا ويلَنا وهلاكَنا، ما شأنُ هذا الكتابِ لا يتركُ ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا إلاّ وسجَّلَه؟! (الواضح في التفسير).

- وقولهُ تعالى: {وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [سورة المؤمنون: ٦٢].

قال الإمامُ القرطبيُّ ما ملخصه: أظهرُ ما قيلَ فيه: إنه أرادَ كتابَ إحصاءِ الأعمالِ الذي ترفعهُ الملائكة؛ وأضافَهُ إلى نفسهِ لأن الملائكةَ كتبتْ فيه أعمالَ العبادِ بأمره، فهو ينطقُ بالحق.
وقيل: عنَى اللوحَ المحفوظ، وقد أُثبِتَ فيه كلُّ شيء، فهم لا يجاوزون ذلك.
وقيل: الإشارةُ بقوله: {وَلَدَيْنَا كِتَابٌ} القرآن. فالله أعلم. وكلٌّ محتمل، والأوَّل أظهر.
يعني أن القرطبيَّ يرجِّحُ معناهُ صحفَ الأعمال. وهو ما اختاره الطبريُّ وابنُ كثيرٍ وغيرهما.

- وقولهُ سبحانه: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [سورة الزمر: ٦٩].

نقل الطبريُّ معنى (الكتابِ) عن قتادةَ قوله: كتابُ أعمالهم. وعن السدِّي: الحساب.

وتفسيرُ الآية: وأضاءَتْ أرضُ المحشرِ يومَ القيامَةِ بنورِ خالقِها، ووُضِعَتْ صحائفُ الأعمالِ للحساب، وجيءَ بالنَّبيّينَ ليَشهَدوا أنَّهم بلَّغوا أُمَمَهم رسالاتِ ربِّهم، وجيءَ بالشُّهداءِ مِن الملائكةِ الحفَظَةِ على أعمالِ العباد، وهم لا يُظلَمونَ شيئًا مِن ثوابِ أعمالِهم، فلا يُنقَصُ مِن أَجر، ولا يُزادُ في عقاب. (الواضح في التفسير).

- وقولهُ عزَّ وجلَّ: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية: ٢٨].

أوردَ القرطبيُّ الخلافَ في المرادِ من (الكتابِ) في الآية، فقال:

قال يحيى بن سلام: إلى حسابها.

وقيل: إلى كتابها الذي كان يُستَنسخُ لها فيه ما عملتْ من خيرٍ وشرّ، قالَهُ مقاتل، وهو معنى قولِ مجاهد.

وقيل: {كِتابِهَا}: ما كتبتِ الملائكةُ عليها.

وقيل: كتابُها المنزَلُ عليها ليُنظرَ هل عملوا بما فيه؟

وقيل: الكتابُ هاهنا اللوحُ المحفوظ. اهـ.

ولعلَّ الأقربَ هو ما وردَ بمعنى صحيفةِ العمل، ويكونُ تفسيرُ الآية: وترَى كلَّ أمَّةٍ مِن الأممِ المجموعة، المتميّزةِ عن بعضِها البعض، باركةً على رُكَبِها، على هيئةِ الخائفِ الذَّليلِ الذي لا يدري ما يُفعَلُ به، مِن هولِ ذلكَ اليومِ وشدَّتِه، كلُّ أمَّةٍ فيها تُدعَى إلى صحيفةِ أعمالِها التي كتبَها الحفَظَة، اليومَ تُحاسَبونَ على أعمالِكم، وتُجزَونَ عليها جميعَها، إنْ خيرًا، أو شرًّا. (الواضح في التفسير).

- ولفظُ (الكتابِ) في الآيةِ التاليةِ لها بالمعنى نفسه، وهي: {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية: ٢٩].

وقد نقلَ الإمامُ الطبري عن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهما أن الكتابَ هنا معناهُ اللوحُ المحفوظ.

لكن ذهبَ آخرون إلى أن المرادَ صحائفُ الأعمال، كما يدلُّ عليه ما بعده.

وقال غيرهم إن المقصودَ الكتابُ المنزلُ على نبيِّ كلِّ أمة، أو هو القرآن.

قال صاحبُ (روح المعاني): الأظهرُ عندي حملُ الكتابِ في الموضعين على صحيفةِ الأعمال.

وقال القاضي البيضاوي أيضًا: أضافَ صحائفَ أعمالهم إلى نفسهِ لأنه أمرَ الكتبةَ أن يكتبوا فيها أعمالهم.

كما أفادَهُ الفخرُ الرازي والبغوي..

وتفسيرُ الآيةِ كاملة: هذا ديوانُ الحفَظَة، الذي دوَّنوا فيهِ جميعَ أعمالِكم التي قدَّمتُموها في الحياةِ الدُّنيا، يَشهَدُ عليكم بالحقِّ والعدل، بدونِ زيادةٍ ولا نقصان، لقد كنَّا نأمرُ الملائكةَ أنْ يكتبوا أقوالَكم وأعمالَكم جميعَها. (الواضح).

- وبمعنى صحفِ الأعمالِ أيضًا قولهُ تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} [سورة الحاقة: ١٦].

يخبرُ تعالَى عن سعادةِ مَن يُؤتَى كتابَهُ يومَ القيامةِ بيمينه، وأنه من شدَّةِ فرحهِ يقولُ لكلِّ من لقيه: {هَآؤُمُ ٱقْرَؤُاْ كِتَٰبِيَهْ} أي: خذوا اقرؤوا كتابيه؛ لأنه يعلمُ أن الذي فيه خيرٌ وحسناتٌ محضة.. (ابن كثير).

- وبمعنى صحيفةِ العملِ أيضًا، مع تباينِ محتواها عن سابقتها، الآيةُ (٢٥) من السورةِ نفسها: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ}.

أي: وأمَّا مَن أُوتِيَ صحيفةَ أعمالهِ بيدهِ الشِّمال، فيَندمُ غايةَ الندم، ويقول: يا ليتني لم أُعْطَ صحيفتي. (الواضح).

- وقولهُ تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً} [سورة النبأ: ٢٩].

اختلفَ المفسِّرون بين أن يكونَ معنَى (الكتاب) هنا صحيفةَ العمل، أو اللوحَ المحفوظ، أو أُريدَ به العلم، فإن ما كُتِبَ كان أبعدَ من النسيان، أو أنه مصدرٌ موكدٌ للفعل، فإن أحصَى مثلُ كتبَ بمعنى ضبطَ.

قال الطبريُّ رحمَهُ الله: يقولُ تعالَى ذكره: {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْناهُ كِتَاباً}: فكتبناهُ كتاباً، كتبنا عددَهُ ومبلغَهُ وقدره، فلا يغرُبُ [لعلها: فلا يَعزُبُ] عنا علمُ شيءٍ منه.

قلت: ويَؤولُ هذا المصدرُ إلى أن هذه الكتابةَ تكونُ في صحفِ الأعمال.

وقال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ الآية: أي: وقد علمنا أعمالَ العبادِ كلِّهم، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ.

- وقولهُ تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ} [سورة المطففين: ٧].

قال صاحبُ (روح المعاني): {كِتَابَ} قيل: بمعنى مكتوب، أي: ما يُكتَبُ من أعمالِ الفجّار.. وقيل: مصدرٌ بمعنَى الكتابة.

وهو نقلٌ مما قالَهُ البيضاوي: ما يُكتَبُ من أعمالهم، أو كتابةُ أعمالهم.

وقال ابنُ كثير: أي إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين. اهـ.

ويعني بذلك أجلهم، أو الحكمَ الصادرَ فيهم.

وقال البغوي: {إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ}: الذي كُتِبتْ فيه أعمالهم.

ولخَّصَ القرطبيُّ معنَى الآيةِ فقال: والمعنى: كتابُهم في حبس، جعلَ ذلك دليلاً على خساسةِ منزلتهم، أو لأنه يَحلُّ من الإعراضِ عنه والإبعادِ له محلَّ الزجرِ والهوان.

- والآيةُ التاسعةُ من السورةِ نفسها: {كِتَابٌ مَرْقُومٌ} وصفٌ لكتابِ الفجّار، فيكونُ المرادُ صحيفةَ عملهم، وإن كان تصريفهُ اللغويُّ يفيدُ مصدريته.

قال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ الله: تفسيرٌ لما كُتِبَ لهم من المصيرِ إلى سجّين، أي: مرقومٌ مكتوبٌ مفروغٌ منه، لا يُزادُ فيه أحد، ولا يُنقَصُ منه أحد.

وقال القرطبي: أي مكتوبٌ كالرقْمِ في الثوب، لا يُنْسَى ولا يُمْحَى.

وعند البغوي، في توضيحٍ أخير: {كِتَبٌ مَّرْقُومٌ}: ليس هذا تفسيرَ السجِّين, بل هو بيانُ الكتابِ المذكورِ في قوله: {إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ} أي: هو كتابٌ مرقوم, أي: مكتوبٌ فيه أعمالُهم، مثبتَةٌ عليهم كالرقْم في الثوب، لا يُنسَى ولا يُمحَى حتى يجازوا به

- وبمعنى سجلِّ الأعمالِ ولكنْ بمحتوًى مختلف، قولهُ سبحانهُ وتعالَى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} [سورة المطففين: ١٨].

أي: كلاّ لكتابِ الفُجَّار. إنَّ سجِلَّ أعمالِ عبادِ اللهِ الأبرارِ المطيعينَ في عِلِّيّين (الذي يوحي بالعُلوِّ والارتِفاع). (الواضح).

قال الإمامُ ابنُ جريرٍ الطبري: والأبرارُ جمع بَرّ، وهم الذين برُّوا اللهَ بأداءِ فرائضه، واجتنابِ محارمه. وقد كان الحسنُ يقول: هم الذين لا يؤذون شيئاً حتى الذَّرّ.

- والآيةُ (٢٠) من السورةِ نفسها: {كِتَابٌ مَرْقُومٌ} سبقَ بيانُها قبلَ سطور.

- وقال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [سورة الانشقاق: ٧-٨].

قال النسفي: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَبَهُ بِيَمِينِهِ} أي: كتابَ عمله، {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً}: سهلاً هيّنًا، وهو أن يُجازَى على الحسنات، ويُتجاوزَ عن السيئات.

وقد بيَّنَ الفخرُ الرازيُّ معنَى الحسابِ اليسيرِ فقال: الحسابُ اليسيرُ هو أن تُعرَضَ عليه أعماله، ويَعرفَ أن الطاعةَ منها هذه، والمعصيةَ هذه، ثم يثابَ على الطاعة، ويُتجاوزَ عن المعصية. فهذا هو الحسابُ اليسير؛ لأنه لا شدَّةَ على صاحبهِ ولا

مناقشة، ولا يُقالُ له: لم فعلتَ هذا؟ ولا يُطالَبُ بالعذرِ فيه، ولا بالحجَّةِ عليه، فإنه متى طولبَ بذلك لم يجدْ عذرًا ولا حجَّةً فيفتضح.

- والآيةُ (١٠) من السورةِ نفسها: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ . فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا . وَيَصْلَى سَعِيرًا} [الآيات ١٠-١٢].

أي: وأمَّا مَن أُوتيَ صحيفةَ أعمالِهِ بيدهِ الشِّمالِ مِن وراءِ ظهرِهِ، وهي علامةٌ على الخيبةِ والخسران، فسوفَ يُنادي بالويلِ والهلاكِ على نفسه، ويَدخلُ جهنَّمَ ويقاسي حرَّها وعذابَها. (الواضح).

الكتاب

بمعنى الكتابة

ويأتي (الكتاب) بمعنى **الكتابةِ** في القرآن الكريم:

- كما في قولهِ تعالى عن عيسى عليه السلام: {وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} [سورة آل عمران:٤٨].

أي: ويعلِّمُ اللهُ المسيحَ عيسَى الكتابة. وهو معنَى قولِ ابنِ عباس: الخطُّ بالقلم. (ينظر الدر المنثور للسيوطي، وتفسير الطبري).

- ومثلهُ في الآيةِ (١١٠) من سورةِ المائدة: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}.

فالكتابُ هنا أيضًا معناهُ الكتابة، أو "الخطُّ" كما عبّرَ به الطبري، وحذا حذوهُ ابنُ كثير.

وهناك من قال إنه بمعنى (جنسِ الكتاب)، ويعنون الكتابَ السماوي. كما في (روح المعاني).

الكتاب

بمعنى الكتاب العادي أو الصحيفة

ويأتي "الكتاب" في القرآنِ بمعنى **الكتاب** نفسه، أو القطعةِ المكتوبةِ عليها، وهي **الصحيفة**:

- كما قال الله عزَّ وجلّ: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} [سورة الأنبياء: ١٠٤].

أي: في يومِ القيامةِ نَطوي السَّماءَ كطيِّ الصَّحيفةِ لِمَا كُتِبَ فيها.

قال ابنُ كثيرٍ رحمهُ الله، بعد إيرادِ أقوالٍ ورواياتٍ في معناها: الصحيحُ عن ابنِ عباس، أن السجلَّ هي الصحيفة... ونصَّ على ذلك مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُ واحد، واختارَهُ ابنُ جرير؛ لأنه المعروفُ في اللغة.

وفي إضافةِ السجلِّ إلى الكتبِ قالَ الآلوسيُّ رحمهُ الله: أي كطيِّ السجلِّ كائنًا للكتب، أو الكائنِ للكتب، فإن الكتبَ عبارةٌ عن الصحائفِ وما كُتبَ فيها، فسجلُّها بعضُ أجزائها، وبه يتعلَّق الطيُّ حقيقة.

ويُفهمُ من كلامهِ رحمَهُ الله أن المقصودَ مجموعةُ أوراقٍ أو صفحاتٍ من الكتاب.

ويكونُ معنى الكتابِ عندهُ الكتابَ العاديَّ الذي نعرفه، يعني جنسَ الكتاب، أعني هيئتهُ وشكلَه، بغضِّ النظرِ عن مصدرهِ أو محتواه.

- وأوردَ الله تعالى في كتابهِ قولَ المشركين لنبيِّهِ عليه الصلاةُ والسلام: {وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ} [سورة الإسراء: ٩٣].

قال الإمامُ الطبريُّ في تفسيرِ الآية: ولن نصدِّقكَ من أجلِ رقِيِّكَ إلى السماء {حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا} منشورًا {نَقْرَؤُهُ} فيه أمرُنا باتِّباعِكَ والإيمانِ بك.

وأوردَ قولَ مجاهد: من ربِّ العالمين إلى فلان، عند كلِّ رجلٍ صحيفةٌ تصبحُ عند رأسهِ يقرؤها.

وقولَ قتادة: أي: كتابًا خاصًّا نؤمَرُ فيه باتِّباعك.

فيكونُ المقصودُ بالكتابِ في الآيةِ: الصحيفة، وهي الدفتر، أو مجموعةَ أوراقٍ مضمومة.

- وقال الله سبحانه: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} [سورة العنكبوت: ٤٨].

قال أبو جعفر الطبري في تفسيرها: {وَما كُنْتَ} يا محمَّدُ {تَتْلُوا} يعني تقرأ {مِنْ قَبْلِهِ} يعني من قبلِ هذا الكتابِ الذي أنزلتهُ إليكَ {مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} يقول: ولم تكنْ تكتبُ بيمينك، ولكنكَ كنتَ أمِّيًّا.

وقال ابنُ كثير: أي: قد لبثتَ في قومِكَ يا محمَّدُ من قبلِ أن تأتيَ بهذا القرآنِ عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تُحسِنُ الكتابة، بل كلُّ أحدٍ من قومِكَ وغيرهم يعرفُ أنك رجلٌ أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب.

وربما فهمَ بعضهم معنى (الكتاب) السماويَّ منه، ولكن المقصودَ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ما كان يقرأ ولا يكتب، فيكونُ المرادُ مطلقَ الكتاب، يعني لا يُحسنُ قراءةَ الكتابِ السماويِّ وغيره.

الكتاب

بمعنى الرسالة أو الخطاب

ومن معاني "الكتاب" في القرآنِ الكريم: **الرسالة، أو الخطاب**.

- كما قالَ سليمانُ عليه السلامُ للهدهد: {اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ} [سورة النمل: ٢٨].

أي: اذهَبْ برسالتي هذهِ إلى ملِكَةِ اليمن وقومِها وألْقِها إليهم.

وجوابها: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّيَ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} [سورة النمل: ٢٩].

أي: قالت لمنْ حولَها مِن أصحابِ الرأي ووجهاءِ القوم: أيُّها السَّادةُ والأمراء، لقد أُلقِيَتْ إليَّ رسالةٌ مختومة، عاليةٌ وقديرة، في شكلِها ومضمونِها! (الواضح في التفسير).

الكتاب

بمعنى المكاتبة

ويأتي "الكتاب" بمعنى **المكاتبة**:

- كما وردَ في قولِ ربّنا: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} [سورة النور: ٣٣].

أي: والذين يريدونَ أن **تُكاتِبوهم** منَ العبيد، بأنْ يُعطوكم قَدْرًا مِن المال ليَتحرَّروا، ولهم صَنعَةٌ أو قوَّةٌ على الكسبِ يَستطيعونَ به أن يؤدُّوهُ إليكم، فاسمَحوا لهم بذلك، وساعدوهم فيه، وأعطُوهم ممّا أعطاكمُ اللهُ منَ الرّزق، ليَكونَ عونًا لهم على تحريرِهم. (الواضح في التفسير).

الخاتمة

وهكذا وجدنا أن لفظَ (الكتابِ) يردُ في كتابِ اللهِ تعالَى ويُرادُ به معان مختلفة، بلغتْ (١٥) معنى، أو قريبًا منها، وهي باختصار، مع شاهدٍ لكلِّ معنًى منه:

١- يأتي الكتابُ في القرآنِ بمعنى **اللوح المحفوظ**، كما في قولهِ تعالَى: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [سورة الرعد: ٣٩].

٢- ويأتي بمعنى **الوحي** عمومًا، فإن الكتبَ السماويةَ وحي، كما في قولهِ تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [سورة الحج: ٨].

٣- كما يردُ بمعنى **الكتاب السماوي** مطلقًا، أو **الكتبِ السماوية** جمعًا، من ذلك قولهُ سبحانه: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [سورة البقرة: ٢٨٥].

٤- وبمعنى **التوراة**، كما في الآيةُ (٨٧) من سورةِ البقرة: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ}.

٥- وبمعنى **الإنجيل**، كما في قولهِ سبحانهُ على لسانِ عيسى عليه السلام: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً} [سورة مريم: ٣٠].

٦- ويردُ "الكتاب" بمعنى **القرآن**، كما في آياتٍ كثيرة، منها: الآيةُ السابعةُ من سورةِ آلِ عمران: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}.

٧- ويأتي بمعنى **المكتوب**، أو **المفروض**، كما في قولهِ عزَّ وجلَّ: {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً} [سورة النساء: ١٠٣].

٨- وقريبًا من (المكتوب، أو المفروض) أو بمعناه، أن يردَ لفظُ (الكتابِ) ويُرادُ به **الحُكم**، كما في قولِ ربّنا تباركَ وتعالى: {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة الأنفال: ٦٨].

٩- ويمكنُ أن يقالَ إن "الكتاب" يأتي بمعنى **الوثيقة** أو **الحجَّة** و**الدليل**، وإن كان اعتبارهُ يعودُ إلى "جنسِ الكتاب" السماوي، أي: يكونُ من عندِ الله، كما في قولهِ تعالى ردًّا على الكفارِ الذين قالوا إن الملائكةَ بناتُ الله – تعالى الله –: {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الصافات: ١٥٧].

١٠- ويأتي "الكتاب" بمعنى **الأجل** نفسه، وإن جاءَ مقرونًا به في آيات، كما في قولهِ عزَّ وجلَّ: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ} [سورة الحجر: ٤].

١١- ويُطلَقُ "الكتاب" ويُرادُ به **صحف الأعمال** التي فيها أعمالُ العباد، فهي سجلُّ أعمالهم: كما قال الله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [سورة الكهف: ٤٩].

١٢- ويأتي بمعنى **الكتابةِ** أيضًا، كما في قولهِ تعالى عن عيسى عليه السلام: {وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} [سورة آل عمران:٤٨].

١٣- ويأتي بمعنى **الكتابِ** نفسه، أو القطعةِ المكتوبةِ عليها، وهي **الصحيفة**، كما قال الله عزَّ وجلّ: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} [سورة الأنبياء: ١٠٤].

١٤- ومن معاني "الكتاب" في القرآنِ الكريم: **الرسالة**، أو **الخطاب**، كما قال سليمانُ عليه السلامُ للهدهد: {اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ} [سورة النمل: ٢٨].

١٥- ويأتي بمعنى **المكاتبة**، كما وردَ في قولِ ربّنا: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً} [سورة النور: ٣٣].

والحمدُ لله ربِّ العالمين

الفهرس

مقدمة ٢

الكتاب بمعنى اللوح المحفوظ ٤

الكتاب بمعنى الوحي ٩

الكتاب بمعنى الكتاب السماوي ١٠

الكتاب بمعنى التوراة ٣٣

الكتاب بمعنى الإنجيل ٤٢

الكتاب بمعنى القرآن ٤٣

الكتاب بمعنى المكتوب أو المفروض ٦٤

الكتاب بمعنى الحُكم والقضاء ٦٦

الكتاب بمعنى الوثيقة أو الحجة والدليل ٦٩

الكتاب بمعنى الأجل ٧٠

الكتاب بمعنى صحف الأعمال ٧١

الكتاب بمعنى الكتابة ٧٨

الكتاب بمعنى الكتاب العادي أو الصحيفة ٧٩

الكتاب بمعنى الرسالة أو الخطاب ٨١

الكتاب بمعنى المكاتبة ٨٢

الخاتمة ٨٣

الفهرس ٨٦